الفينيقيون
وركاز الذهب
واكتشاف اميركا

تأليف

عبد الله يوسف النحاس

مطبعة جريدة البصير ١٩٤٣


SUPRA SPEM SPERO

عمدتي في وضع هذه الرسالة

هيرودطس	(٤٨٤ — ٤٢٥ ق٠م٠)	ترجمة لرشيه
ارسطو	(٣٨٤ — ٣٢٢ ق٠م٠)	« برتامي سنتيلر
بوليب	(٢٠٥ — ١٢٥ ق٠م٠)	« فلكس بوشو
ديودور الصقلي	(معاصر لاغوسطس)	« ميوت
اسطرابون	(٥٨ ق٠م٠ — ٢٥ ب٠م٠)	« اميدي تاردبو
بلين الاكبر	(— ٧٩ م٠)	« ليتريه

ومجموعة النقوش السامية التي تصدرها ندوة الآثار بباريز ومجلة سيريا وبعض علماء الآثار وغيرهم ممن يرد ذكرهم في سياق الحديث .

بسم الله الازلي السرمدي

أما بعدُ فانَّ اقتفاءَ آثار الفينيقيين في طلب الذهب هدَى الغربيين في القرون الوسطى الى العالم الجديد . وهذه كلمات مما هَجَس في الصدر . وأثارتهُ في الذهن حوادث الايام . حدَّثتُ بها في فترات متواترة قرَّاءَ البصير المنير والحديث شجون . ثم رأيت ضمَّها معاً لأنَّ مدارها حول حسنة من حسنات هذه البقعة الضيقة المعروفة بفينيقية التي لا يشاد لها اليوم بذكر . وهي التي كانت في ظلمات العصور تنير بمصابيح سفنها ظلمات البحر ومجاهله . وتحيي بمدنها سواحله . تؤمُّ اقاصيَهُ والهمَّة زادها والنجوم هداتُها . والامواج رِكابُها والعواصف حُداتُها . وهي التي بنت لليونان أُسُسَ الحضارة فصيَّرت مفخرتهم الارتقاء في ذلك البناء . وحيَّرت من جاءَ بعدهم بما أورثتهم من حكمة وما أُوتيتهُ من دهاء . وهي التي سنَّت للعالمين سنَّة لن يجدوا عنها من محيد مادام على وجه البسيطة قلب خافق ولسان ناطق

ألا وهيَ هذه الحروف التي بها ينقشون مآثرهم في لوح الخلود . فهي بحق ربّة القلم وما يسطُرون . وهي التي دارت باساطيلها حول هذه الكرة دوران الشمس . ثم أبت عليها عثرات الجدود وحكم الاقدار إلّا أن تطمُسَ منها الآثار وتجعلها حصيداً كأن لم تغنَ بالامس . فمضت ولسان حالها ينشد :

كانت قضاعةُ ملءَ الارض ما اتسعت

فقصَّ مرُّ الليالي من حواشيها



كلمة في اسم فينيقية

فينيقية لفظ أطلقه اليونان على هذه البقعة الضيقة من ارض الكنعانيين الواقعة عند سفح لبنان على ساحل البحر . وهي التي كانت لسفنها مملكة البحار الوفاً من السنين قبل التاريخ الميلادي .

اما لفظ فينيقية فقيل انه مأخوذ من Φοινξ ومعناه النخل . فزعم البعض انهم منسوبون اليه . وهذا اللفظ نفسه يعني ايضاً اللون الاحمر فقيل انهم سُمُّوا به لحمرة بشرتهم . وقيل ايضاً انها نسبة الى بعض البلاد حمراء التربة لها هذا الاسم مثل فينكس (ميناء اكريت) . الى ما شاكل ذلك .

اما النسبة الى حمرة البشرة فان أهل الشمال احرى بها منهم . واما النخل فليست فينيقية ارضَهُ . وان وجد شجره في انحاء منها أو في ما جاورها فليست شهرتها به . بل عرفت جبالها بشجر الارز والصنوبر والتفاح كما تشهد بذلك اسفار العهد القديم وكما هي حالها اليوم . ولم يشتهر اهلها بتجارة التمر إن قيل انه مما حملته مراكبهم للتجارة .

وانما كانت تجارة الفينيقيين بالكهربا[1] يستوردونها من البحر البلطيكي . وبالفضة والنحاس يستخرجونهما من ترشيش (جنوب

(١) الكهرباء الصمغ المتحجِّر المعروف تتخذ منه الحليّ . والتجارة به منذ العصر النحاسي . وفي آثار أشور انه منذ القرن العاشر قبل الميلاد كان يحمل اليها من « البحر الواقع في منطقة نجم القطب » اه .

وهو اذا احمي بالفرك اختلس التبن والهشيم . وأول من وصف هذه القوة الفيلسوف تاليس الفينيقي المحتد (٦٠٠ ق . م .) ولفظة كهربا اخذها المولدون من الفارسية كاه تبن و ربا جاذب . فلا ذكر لها في القديم من متون اللغة . وبديهي ان الفينيقيين كانوا يسمون هذا الصمغ الكثيرآء تشبيهاً بما في بلادهم لأن صمغ الكهرباء أشبه شيء بصمغ الكثيراء . والكثيراء تخرج من اصل بعض الشجر بارض فينيقية . قال ابو الريحان البيروني في كتاب الاحجار : « انه (أي صمغ الكهربا) ينعقد على الارض ولو كان جموده على الشجر لكان كالكثيرآء » اه. وقال الفيروزبادي : « الكثيرآء رطوبة تخرج من اصل شجرة تكون بجبال بيروت ولبنان » اه. ومثله قول ابن البيطار في مفرداته. ومن البديهي ان يسمي اليونان هذا الصمغ محاكاةً لما يسميه به تجّاره Ηλεχτρον والمحاكاة واضحة بين لفظتي الكثيراء و (ألكترون) Electron . وعن اليونان اخذت لغات اوروبا الحديثة لفظة Electricité . غير أنهم خصّوها بالقوة الكهربائية دون معنى الصمغ المذكور مع انها باليونانية مختصة به . فلفظة Electricité من صمغ الشجرة الفينيقية وأول من وصفها الفيلسوف تاليس الفينيقي المحتد وهو رأس اساطين الحكمة عند اليونان ولكن الغربيين وقفوا في اشتقاقها عند اللفظ اليوناني

اسبانيا) والقصدير من جنوب بريطانيا والذهب من ارض اوفير وغيرها . ويشحنون مصنوعاتهم من الزجاج ونسيج الصوف والحليّ الذهبية والتماثيل من الشبَه والخزف .

ففي نبوة حزقيال (٥٩٥-٥٧٣ ق.م.) في ما وصف به مدينة صور حاضرة فينيقية (٢٧-١٢) وهو يتوعدها : « ترشيش متّجرة معك في كثرة كل غنى وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامت اسواقك» وفيها : (٢٧-١٦) : « آرام متّجرة معكِ في كثرة صنائعكِ وبالبهرمان والارجوان والياقوت اقامت اسواقك » اه .

ومعظم شهرة الفينيقيين ، بأصبغة القرمز والعصفر أو المُرِّيق والارجوان لم يكن يدانيهم فيها احد . وافخرها ارجوان صور كان يباع بما يقارب وزنه ذهباً . ومعلوم ان اللون الاحمر يحلى في العين فكان الأقدمون يتباهَون به . ولذا كان الارجوان لباس الملوك ورمز السيادة فالأشبه أن الفينيقيين وهم ارباب صناعته وتجارُهُ كانوا يكثرون من توشية اشيائهم وصبغها بهِ من ثياب وغيرها . ولعلهم كانوا يوشون به ايضاً أشرعة سفنهم . ففي نبوءة حزقيال ايضاً (٢٧-٣ و٧) اشارة الى بذخهم ومغالاتهم بالوشي . قال : « قل لصور الساكنة عند مدخل

البحر تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة » ... البزّ الموشّى من مصر كان ما نشرته شراعاً لكِ والسمنجوني والارجوان من جزائر اليشه كان غطاءك » اه .

وعادة التجمّل بالثياب الحمر عهدناها باقية في بادية الشام . حتى الخفاف كانت في لبنان من الجلد الاحمر . وقد ذكر ابو الطيب عاده البدو هذه في عصره بقوله :

مَنِ الجآذرُ في زيِّ الاعاريبِ ... حُمرَ الحِلَى والمطايا والجلابيبِ

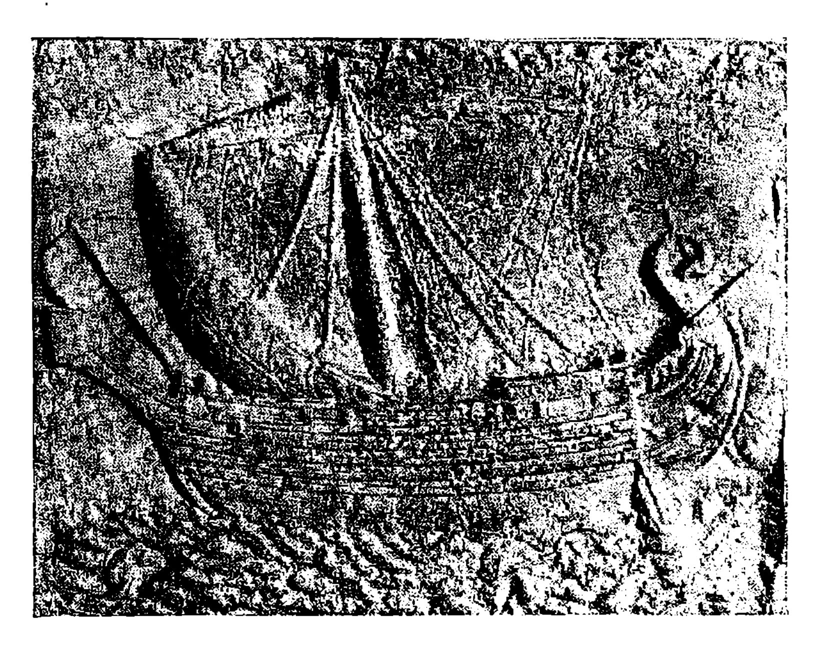
ولا ريب انها عادة للكنعانيين ومجاوريهم قديمة جداً . ففي سفر اشعيا (٦٣–١ و٢) : « مَن ذا الآتي من أدوم بثياب مضرَّجة من بُصْرَةَ هذا الذي يتباهى بلباسهِ » اه .

المضرَّج المصبوغ بلون احمر .

وبديهيٌّ ان يُنعت القوم بما يملك العين من منظرهم . فهذا اشبه ان يكون السبب في تسميتهم بالفينيقيين . والله اعلم



حتّى اذا بلغَ مطلِعَ الشمسِ وَجَدَها تطلُعُ
على قوم لم نجعل لهم من دونِها ستراً (الكهف)



سفينة فينيقية للتجارة منقوشة على ناووس في مدافن صيدون
وجده الدكتور كونتنو سنة ١٩١٤

الذهب (١)

والحرب في القرن الخامس عشر

ان ملاحي الغرب في اواخر القرن الخامس عشر كانوا كمن استيقظ من سبات فاندفعت مراكبهم متتالية في طول البحار وعرضها للبحث عن مجاهل العالم. وكانت ضالتهم المنشودة معادن الذهب

وكان السبب في ذلك البحث وركوب الاخطار وتجشم الاسفار الشاسعة ما وقع في الشطر الاول من القرن الخامس عشر من فرار الدنانير من ايدي الصيارفة وتواريها عن العيون. حتى صار التعامل ووفاء الصكوك والقبالات الثلث عيناً ذهباً والثلث من الورِق الفضة والثلث الثالث فلوساً نحاسية

واما العلة في احتجاب الذهب حين ذاك فنفس العلة في احتجابه اليوم. اذ كان حدوثه على اثر المناوشات والوقائع المعروفة « بحرب مئة

---

(١) البصير ١٩٤٢/١٢/٢٣

سنة » (١٣٣٧—١٤٥٣) فطار النضار من أكفّ التجار واصبحت حال النقد كحاله لهذا العهد

فهب السعاة والادلاّء يتنسمون الانباء عن ارض التبر ودفائن ركازه ويستفتون العلماء فيتصفحون له الاسفار وما جاء في سالف الاخبار عن هيكل صور وكنوزه ورياشه وأعمدته الذهبية[1] وقرطجة وثروتها الطائلة وما ورد في التوراة عن سليمان وهيكله الشهير وما اجتلبته له مراكب الفينيقيين من ذهب أوفير ، (في سفر الملوك الثالث ٢٢/١٠[2]) : « ان الملك كانت له سفن في البحر سفن ترشيش

---

(١) قال هيرودتس (٤٤/٢) : « ركبت البحر الى صور لزيارة هيكل هرقل الشهير فوجدته مزداناً بما لا يحصى من الذخائر والتحف . منها عمودان احدهما من الذهب الابريز ، والآخر من الزمرد يتألق في الظلام » . اه

قال العلامة لرشيه : « لعله من الزجاج الملون في داخله مصباح » . اه

ولكن الزجاج ليس له من القيمة ما يُحل التقرب به الى أعظم هياكل هرقل فلعله ترصيع متقن متلاحم بحيث ينخدع به من كان غريباً عن صناعة الجوهريين ولاسيما ان هذا الزمرد في هيكل صور جاء في كلام آخرين غير هيرودتس منهم فيلوسترات (في حياة ابولونيوس) وثيوفراست (في الاحجار الكريمة) وسواء كان ترصيعاً أو غيره . انه شاهد على براعة صناعه

(٢) سفر الملوك الثالث من طبعة اليسوعيين هو الاول من طبعة الاميركان

مع سفن حيرام. فكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنين حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقردة وطواويس »

وثمَّ من الأدلة ان الفينيقيين في فن التنقيب عن الجوهر وحفر أنفاقه والاحتياط من الانهيار وانبثاق المياه ليسوا أقل براعة من أربابه اليوم. ففي سفر ايوب (٢٨/ ٤ و ٧ و ٩ و ١٠ و ١١) انهم لاستخراج الذهب « حفروا وادياً بمعزل عن السكان » وانهم « على بعد من الناس يتدلون مترجحين » في « سبيل لم يعرفه النسر ولم تبصره عين الحدإ » « وانهم بسطوا ايديهم الى الصوان وقلبوا الجبال من اصولها وفي الصخور نحتوا قنوات » و « منعوا رشح الانهار »

وفي سفر الملوك الثالث ايضاً (١٠/١٤) : « كان وزن الذهب الذي ورد على سليمان في سنة واحدة ست مئة وست وستين وزنة ذهب »[١]

فأزمة النقود التي ساقتها الى اهل القرن الخامس عشر « حرب مئة سنة » صيَّرت ارض التبر مطمح الابصار وحديث السمَّار وصار الاهتداء اليها امنيتهم المعول عليها. اليها تطاول الاعناق. وفي سبيلها يهون الضرب في الآفاق. فهي التي ادَّت في ما أَرَى الى اكتشاف اميركا

٥ ٥ ٥

(١) الوزنة عندهم ثلاثة آلاف شاقل والشاقل نحو ١٥ غراماً فالوزنة نحو ٤٥ كيلو أي قنطار مصري

دياث

ففي سنة ١٤٨٦ قام الربان برتلمي دياث المتطريس على آثار الفينيقيين في التنقيب عن معادن الذهب وذلك بأمر جان الثاني ملك البرتغال فمرَّ على شواطىء افريقيا الغربية ودار حول رأس الرجا الى شرقيها الجنوبي وكانت وجهته جزر الهند ولكن بحارته ملوا طول السفر واستوحشوا مما يستقبلهم فاضطروه ان يعود أدراجه وقد سمي رأس الرجا رأس الزوابع لما لقي عنده من هول البحر

ه ه ه

كولمبس

وفي اثناء ذلك كان خرستوف كولمبس يقرع ابواب الملوك ملتمساً تجهيزه بالسفن لفتح طريق الى الهند بالاتجاه بها من الاندلس الى مغرب الشمس . واستمر على ذلك زمناً وهو يذكر شكل الارض كما يصفها علماء الفلك ويذكر من الأدلَّة عليه ما يشهده المسافر في رحلاته من ظهور رؤوس الجبال قبل سفحها الى غير هذا فلا يصادف مسعاه عند سامعيه غير الاستخفاف

الى ان كانت سنة ١٤٩٢ وقد ارتاحت لحديثه ازابلا ملكة قشطالة

وملأت يده مما في نفسه فامدته بالمال والمؤن وعقدت له اللواء على ثلاث سفن ولا بأس ان نلم بما لقي هو وغيره بكلمة تأنس النفس بطالعتها

° ° °

ففي ٣ اغسطس سنة ١٤٩٢ جرى كولمبس بسفنه الى الجزر الخالدات ولبث عندها شهراً . حتى اذا وافقته الريح غالط من معه من النوتية وطوى بهم الاوقيانس فما عتم ان القى مراسيه ليلة ١٢ اكتوبر عند جزيرة جواناهاني (سان سلفادور من جزر باهاما) وكان يظنها شرق الهند . وزار باسطوله كوبا وهايتي . وفي ١٦ يناير سنة ١٤٩٣ انقلب عائداً الى اسبانيا فدخل برشلونة يوم ١٥ مارس سنة ١٤٩٣

ثم قام برحلة ثانية في ٢٣ سبتمبر سنة ١٤٩٣ عرف في خلالها جزر الانتيل وجامييك وبرتريكو . وفي رحلة ثالثة سنة ١٤٩٨ مر على شواطىء اميركا الجنوبية ما بين كاراكاس والاورينوك ، وهو يحسبها الهند . الى ان تمكنت منه ألسنة المغتابين ومن أكل الحسد اكبادهم فأنفذ الملك اليه مشرفاً تجاوز حده فنحاه عن امارته وأنزل به المكروه وأعاده مكبلاً بالاصفاد . وطال ما قاد الوفاء الى الشقاء وكان الغدر والكفران جزاء الاحسان

ولما اطلق سراحه تكلف على ضيق ذات يده رحلة رابعة اقتعد

لها ظهور المكاره لا لشيء سوى استيفاء عمله الجليل . غير انه عاد مكسور القلب لا يلقى الا وجوهاً زواها الشنآن . واكفاً قبضها اللؤم وهو الذي أولى دولة الاسبان من الغنى والجاه ما تضيق دونه الدنيا على سعتها . وبسط سلطانها على بلاد لا تغيب الشمس عن اطرافها . وهدى العالم الى عالم آخر مثله . ثم قضى نحبه سنة ١٥٠٦ رهين البؤس والضيق . لا ترمقه عين صديق

ويُزري بعقلِ المرءِ قلّةُ مالِهِ
وان كان اسرَى من اناسٍ وأحوَلا

ومن غرائب احكام القدر ان قضى الحظ على رفاته ، بعد وفاته ، ان يعاني مثل رحلاته . فقد دفنوه سنة ١٥٠٦ في اشبيلية . ثم نقلوه سنة ١٥٣٦ الى سان دومنك . ثم حملوه سنة ١٧٩٥ الى هافانا . ثم قفلوا عائدين بعظمه الرميم الى الاندلس سنة ١٨٩٩ فكانت بيعة اشبيلية قبلة ذلك الفقير ، ومأواه الاخير .

٭ ٭ ٭

فاسكو دكاما وابن ماجد

وفي سنة ١٤٩٧ كان امانويل ملك البرتغال قد أعد اربع سفن ولّى

قيادتها الربان فاسكو دكاما وأنفذه الى الهند على الطريق التي سلكها قبله الربان دياث ليسلب دياث فضل التقدم . فمر برأس الرجا في ٢٢ نوفمبر سنة ١٤٩٧ ومضى في جريه الى الشرق ثم الشمال فبلغ سفالة في فبراير سنة ١٤٩٨ ومر بمنبسة وملندة ومنها استصحب الربان العربي الشهير شهاب احمد بن ماجد السعدي فكان دليله الهادي وديدبانه الرشيد لاستئناف طريقه الى قالقوط .

٥ ٥ ٥

وفي سني ١٥٠٣ و١٥٠٦ و١٥٠٩ قام الامير البرتغالي البوكرك بثلاث رحلات على طريق رأس الرجا الى الخليج الفارسي ومنه الى قالقوط .

٥ ٥ ٥

بلبوَى

وفي سنة ١٥١٣ كان الربان الاسباني بلبوَى وهو من أبرع رفاق كولمبس قد اتصل بالزعيم كومغر من ناحية داريان الواقعة على الساحل الشرقي من جنوب برزخ بناما . وكان لهذا الزعيم الهندي قصر فخم عند سفح جبال الاند فسيح الرِداه والقاعات زخرفت ارضه وسماؤه بنقوش ورسوم متقنة . وزخرت اقبيته بالخوابي واصناف المؤن . وفي

حجرة منه مكتومة قد علقت هياكل من العظام عليها قلائد العقيان وقُنُع من الذهب مرصعة بالاحجار الكريمة . فقال الزعيم : هؤلاء اجدادي . فامتدت يد بلبوى الى الذهب واخذ يكدس ويزن . فهب ابن الزعيم وضرب بيده كفة الميزان فبعثر ما عليها في انحاء الحجرة . وقال لبلبوى : بدلاً من اتلاف هذه الحليّ البديعة الصنع أسند في هذا الجبل فيبدو لك من ورائه بحر آخر تحمل اليه الانهار من سيوب الذهب ما يشبع نهمك .

فعمل بلبوى بنصيحة الفتى . وفي ٢٦ سبتمبر سنة ١٥١٣ وقع نظره من قنن جبال الاند على المحيط غرب اميركا . وحين انحدر الى الساحل وبلغ اعوانه جزر اللؤلؤ في خليج بناما ، وقع في أسرهم زعيم الجزر . فافتدى نفسه منهم بزنبيل يحوي من اللؤلؤ مازنته ١١٠ ليبرات أي نحو خمسين كيلو . وكان بعض تلك اللآلىء بحجم البندقة

وفي سنة ١٥١٥ كان بلبوى على ساحل اميركا الغربي عاملا لبدراياس دافيلا حاكم بناما الاسباني . وعلم بلبوى ان ارض بيرو زاخرة بالجوهر وركاز الذهب فعقد النية على استخراج افلاذها . فأشعل هذا النبأ قلب الحاكم دافيلا فعمل على اشخاص بلبوى اليه وأثابه على اجتهاده بقطع رأسه .

الذهب

والرحلة الاولى حول الارض[1]

غريجالفا

وفي سنة ١٥١٨ اتى اليوقطان قادماً من كوبا الربان الاسباني جان غريجالفا . فاذا هي بلاد حسنة قد احكمت الحضارة سياستها فلِأَوثانها الهياكل الفخمة ، وشوارعها معبدة مستقيمة ، واهلها يرتدون ثياباً منسوجة . فعلى الرجال مصبغات من النسيج ، والنساء ملفعات بالخُمُرُ على صدورهن ادراع قطنية وأُزُرهن مرسلة من معاقدها على الاقدام .

وعلى مقربة من اليوقاطان جزيرة صغيرة قام عليها برج شاهق يصعدون الى اعلاه بمرقاة نحو ثمانين درجة تهتدي بسواده المراكب من بعد سبعين فرسخاً فكان اشبه بمنارة وهو من بيوت العبادة عندهم وفيه ضروب من الأوثان المنحوتة من الرخام والمضخّمة من الصلصال والخزف

ومضى غريجالفا من اليوقاطان الى كمبتشه ، فتصدى له عندها

---

(١) البصير ١٩٤٣/١/١٣

حراس البلاد الا انهم تحرجوا من مناشبته القتال بدون انذار . فأوقدوا بينهم وبينه مشعلاً وأفهموه أنَّهُ ان لم يُوَلِّ الأَدبار قبل ان تأكل النار المشعل فتكوا به وبمن معه ورووا الارض من دمهم . فأفهمهم انه انما هو قادم لمقايضة ما معه من الأنسجة الحريرية بما عندهم من الذهب . فعند ذلك رحبوا به وبادلوه بسلعه مقادير من النضار وقيل انهم ألبسوه شكة تامة من السلاح كانت من خالص الذهب

ماجلان

وفي ٢٠ سبتمبر سنة ١٥١٩ قام البحار البرتغالي ماجلان من ميناء سان لوكار بالاندلس ، بخمس سفن ومعه العالم الفلكي روي فاليرو . واتجه الى ريودجانيرو بالبرازيل ومن هناك جرى اسطوله والشاطئ الشرقي نحو الجنوب . وفي ٢٠ اكتوبر سنة ١٥٢٠ مر على فم خليج عند الدرجة ٥٢° و٤٦َ من العرض الجنوبي ، فأرسل في الخليج مركبين لسبر غوره وبعد خمسة ايام عاد المركبان مزدانين بالرايات لانهما وجدا المعبر نافذاً الى البحر غربي تلك القارة ، فانطلقت السفن على بركات الله ، وسمي المعبر خليج ماجلان ، والبحر غربيه المحيط الهادي والجزر الواقعة جنوبي الخليج سميت ارض النار ، لانهم شهدوا على انجادها

واغوارها ما لا يحصى من مواقد النيران والناس جماعات حولها يصطلون من البرد

ولما أقلع سفنه من الخليج اتجه الى الشمال الغربي . وبعد رحلة مئة وعشرة ايام في المحيط الهادي قطع في خلالها نحو عشرين الف كيلومتر بلغ في ١٦ مارس سنة ١٥٢١ الجزر التي سموها فيما بعد الفيلبين . وقد قضت جماعته في هذه المرحلة اياماً طويلة ليس لهم ما يمسكون به رمقهم سوى الجلود وفتات من الخبز اليابس خالطها قذر الفار ونفاضة المزاود [١]

فتنقل بين تلك الجزر ولما انتهى الى جزيرة زوبو عقد معه اميرها همابون حلف الدم . ودعاه الى مأدبته وكان الطعام بيض السلاحف ونبيذ التمر . والموسيقى بقرع الكنج ونقر الدف والصنوج . واما الذهب فرضي الهنود ان يأخذوا به قطعاً من الحديد ليطبعوا منها اسلحتهم . فكانوا يشترون ١٤ ليبرة من الحديد (٧ كيلوغرامات) بعشر قطع من الذهب

---

(١) المزود وعاء الزاد ونفاضة المزاود مابقى فيها من حطام الزاد ينفضه منهـا القادم من سفره .

ثم انتقل الى جزيرة ماطان فنانعه اهلها وخرج اليه اميرها سيلابولابو في الف وخمس مئة من قساورته فطروه ومن معه وابلاً من النبال المسمومة فكان ماجلان في عداد القتلى . وفر من سلم من رجاله وتولى قيادة المراكب الربان كارفلهو ، ثم خلفه الربان سبستيان دلكانو . ولدى مرورهم على جزيرة مندناو اخبرهم اهلها ان معادن الذهب في اوديتهم اكثر عدداً من شعر الرأس . وبعدها لقوا في احدى جزر الملوك جماعة من المسلمين سقوهم نبيذ الارز ودعوهم الى مشهد مناقرة الديكة

ثم صحبهم من هناك بعض الأدلاء من رعية السلطان المنصور أمير تلك الجزر فاستأنفوا سيرهم الى رأس الرجا ومنه الى سان لوكار بالاندلس وهو الميناء الذي كان منه اقلاعهم . وقد بلغوه بسفينة واحدة لم يسلم غيرها . وأما البحارة ٢٦٥ الذين كانوا على السفن الخمس في اول الرحلة فلم يبق منهم عند نهايتها الا ثمانية عشر وربانهم سبستيان دلكانو وكانت اول طواف حول الكرة الارضية . وكان وصولهم الميناء يوم الخميس ٦ سبتمبر سنة ١٥٢٢ وهم يحسبونه الاربعاء خامس سبتمبر لانهم بدورانهم حول الارض اخذوا على الشمس يوماً .

الذهب [1]

وجزر سليمان ولحوم البشر

سلف القول في ما كان بعد حروب القرن الخامس عشر من التنقيب عن معادن الفينيقيين وكنوز سليمان ودأب الملاحين على البحث عن ارض اوفير . واستمر التنافس بين رجال البحر على كشفها فكانوا يوالون الرحلة إثر الرحلة جادين في طلبها واستجلاء ذهبها . وكأنما الليالي والأعصر الخوالي قد اطبقت عليها الاجفان وختمت عليها بطِلَّسم سليمان فاذا تألق لهم بريق جوهرها في صقع زادهم الامل طمعاً والمغنم جشعاً . وكلما امتنعت عنهم اذكت عندهم الرغبة فيها حتى حسبوا ان الفينيقيين دفنوها معهم في قبر واستودعوا سرها مغيبات الدهر

° ° °

مندانا دنيرا

وفي سنة ١٥٦٧ اتفق للربان الاسباني مندانا دنيرا ان قام برحلة

---

(١) البصير ١٦/١٢/١٩٤٣

كالذين تقدموه . وكان اقلاع سفنه من ميناء كلاو على ساحل البيرو وهو يريد طريقاً الى جزيرة البابو (غينيا الجديدة) فقبل الانتهاء اليها مر في التاسع من شهر فبراير سنة ١٥٦٨ على الجزر شرقيها وكانت ارض اوفير ومناجمها لم تزل هِجِّيرَى الخواطر ومنتجَع الآمال . فسمَّى ذلك الارخبيل الذي بلغه جزر سليمان تيمُّناً بالاسم رجاء ان يتدفق عليه منه مثل كنوز سليمان

وزاد مندانا استبشاراً بهذا الارخبيل ترحيب القوم واستقبالهم اياه بعزف الناي والبوق وقرع الطبول . وتقدم اليه زعيمهم وهو شيخ جليل حسن السمت قد خضب شعره بلون ذهبي . ولم يكن الخضاب من الحناء ولكنها العادة عند من أراد التجمل من اهل تلك الجزر ان ينطل شعره بنقيع الجير فلا يلبث ان يصح لونه الاسود الغدافي ويحول الى شقرة فاقعة

ولشد ما كان دهش مندانا عند ما أهدى اليه ذلك الزعيم بمثابة عربون عن ولائه خصيلة من اللحم الآدمي ، فدفنها مندانا ، وما عتم ان عرف ان القوم كانوا يقتنصون المتخلفين من بحارته كما تقتنص الظباء وان ابتهاجهم بقدومه انما اثارته ثقتهم بافتراسه هو ومن معه

لأن كل غريب وطيء ارضهم فلحمه طعام لهم منزل عليهم من لدن التمساح معبودهم . فما حسبه مندانا مدفناً لكنوز سليمان انما كان مدفناً لكل مغرِّر بنفسه في ذلك الصقع

فاستغنى مندانا عن ورود غينيا الجديدة ورضي من الغنيمة بالاياب الى بلاد البيرو

٥ ٥ ٥

قبائل اليابو

أما قبائل اليابو في جزر سليمان ومجاهل غينيا الجديدة وما جاورها فما برحوا حتى يومنا هذا على ما كانوا عليه من النهم الى اللحم البشري

ولعلهم لا يخلون من مخالفة في الخلقة لسائر بني الانسان . من ذلك ان إبهام اقدامهم تباين سائر اصابعها وتقابلها حتى انه يمكنهم ان يلتقطوا ما شاؤوا بارجلهم كما يلتقطون بايديهم . وان يتسلقوا الاشجار بسرعة القردة

ولعل اغترار اليابانيين اليوم بهذه الجزر ليس اقل من اغترار ذلك الربان الاسباني بها . ولئن توسموا فيها خيراً وثروة فان السيف والنار يأكلان اليوم من لحومهم اكثر مما نهست انياب اهلها في ما سلف من لحم نوتية مندانا

طرق البحار [1]

والديادبة العرب وابرة المغنطيس

مر الكلام عن البعض من بحارة البرتغال وما كشفوه من الجزر غير ان ما يسمونه كشفاً انما هو كذلك في نظرهم ، والا فان هذه البلاد كلها التي اهتدوا اليها وجدوها آهلة بالسكان واكثر الجزر الهندية وما وراءها كانت من قبلهم بازمان اسواقاً لجماعات من اهل البلاد العربية ألفوا طرقها واعتادوا التردد عليها بالتقليد عن السلف اذ انهم من زمن الفينيقيين على اتصال مستمر بسواحل الهند والخليج الفارسي وشواطىء افريقيا لما تقتضيه التجارة والسعي في التحصيل . وفضلاً عن ذلك ان ما يوجبه حج البيت على من استوطن تلك الجزر من المسلمين دليل ناطق بهداية العرب في تلك البحار

ولذا ترى المشاهير من ارباب الاكتشاف مثل سبستيان دلكانو وفاسكو دكاما وغيرهما قد استعانوا على نجاح مساعيهم وطياتهم البعيدة بالأدلاء من العرب ومن لم يظفر بواحد منهم فقد استفاد من علومهم

---

(١) البصير ١٩٤٣/٣/١٦

المسعودي

واذا تصفحت ما وصل الينا من التصانيف العربية من قبل ذلك العهد وجدت في كلام بعضهم كالمسعودي وغيره من اهل المئـة الثالثة وصدر الرابعة في وصف الهند والصين وقولهم ان حدها الشرقي مثلاً البحر الى اقصى الشمال . وان وراء ذلك جزراً موقعها من الطول ١٨٠° درجة [١] وان النهار فيهـا يكون عندنا ليلاً في أقصى بلاد المغرب الى غير هذا مما يدل بصدقه وتنبههم له على المشاهدة . فضلاً عما ذكروا لها من انواع الحيوان والنبات وضروب المعادن

والمسعودي أقام في الهند زمناً ثم صحب جماعة من التجار في رحلة لهم في بحار الصين وذلك نحو سنة ٣٠٦ للهجرة ورافقهم بعدها في عودتهم بالمراكب الى زنجبار . ثم زار عمان والبصرة وطبرية والفسطاط ودمشق وانطاكية الى ان طاف بسواحـل بحر قزوين ، فقضى العمر يجوب الآفاق في طلب المعرفة لا في التماس الارزاق وجمع الاعلاق ، وحين فكر في ما دفع اليه « من طول الغربة وبعد الدار وتواتر الاسفار » ذكر قول ابي تمام :

---

(١) من طول الجزر الخالدات

خليفة الخِضرِ من يربع على وطنٍ في بلدةٍ فظهورُ العيسِ أَوطاني
بالشامِ قومي وبغدادُ الهوى وأنا بالرَقَّتين وبالفُسطاطِ إِخواني

ابو الريحان

وممن سلكوا مسلكه من علماء العرب ابو الريحان البيروني الفلكي المشهور وأقام في الهند اربعين سنة تضلع في خلالها من علوم القوم وفلسفتهم واستقرى تاريخهم وبلغ الغاية في معرفة دياناتهم وغوامضها واتقان لغتهم حتى المقدسة المعروفة بالسنسكريت . وفي ما خلا اللغة صنف في ذلك جميعه كتباً نفيسة . وكانت جماعات منهم تأخذ عنه علوم الروم . وهو من اهل المئة الرابعة وصدر الخامسة (٣٦٢ – ٤٤٠) اي قبل تجول الغربيين واكتشافاتهم في بحر الهند باكثر من خمس مئة سنة

ابن بطوطة

ولا نطيلنّ القول في تعداد كل من ركبوا غارب السفر الى تلك الارجاء . ولكن اذا أجلت النظر في رحلة ابن بطوطة مثلاً وهي

متداولة بين الايدي . وقد قام بها في صدر المئة الثامنة (٧٢٥) ترى في ما وصفه انه حيثما حل واينما ارتحل التقى بالتجار العرب من مسلمين وغيرهم حتى كأنه في وطنه . وهذا سر افلاحه في رحلته مع ما يعترض المسافر في ذلك العهد من العقبات . وقد ولوه القضاء في الهند ثم كان رسول سلطان دهلى الى عظيم الصين الى غير هذا مما اسهب في بيانه

ابن ماجد

ورؤساء المراكب من قبله وقبل مكتشفات الغربيين كانوا قد اتقنوا فن الملاحة . ومنهم من وضعوا الاراجيز لحفظ قواعدها . وذكر ابن ماجد المهري في منظوماته بعضاً ممن تقدموه ، من اهل المئة الرابعة . وقد جروا فيها على الاسلوب الذي رست اصوله الى اليوم . فكانت لديهم المصورات الجغرافية بمواقع الجزر والمرافىء والسواحل الخطرة والآمنة . وكانوا يهتدون بمواقع النجوم كالفينيقيين ولديهم الازياج المحكمة يستخدمونها كما تستخدم اليوم التقاويم البحرية ومعهم العدد من الاصطرلاب والحق المعروف اليوم بابرة المغنطيس ، وغير هذا مما كانت يد الملاحين الغربيين خالية منه فأخذوه عن العرب

فتوطين النفس على تلك الرحلات الشاسعة والاقدام عليها والفضل في بلوغ الغاية منها عائد للشرق ومهارة ملاحيه وخبرتهم الموروثة من زمن الفينيقيين

اما الاصطرلاب فلم يكن مختصاً بالملاحين . بل ان العلماء واهل الرصد كانوا يستخدمونه في اغراضهم لأنه عندهم من العدد الفلكية فتفننوا في اشكاله وصنفوا فيه كتباً

الُحق

وأما الحق فقلما تجد له عندهم وصفاً . وكان جبريل فراند وهو من علماء المشرقيات قد نشر من نحو عشرين سنة مصنفات في آلات الملاحة . وجاء شيء عن الحق في فقرة منها منقولة الى الفرنسوية عن « كنز التجار في معرفة الأحجار » لبيلك القبقجاقي وما شهده هذا الاخير سنة ٦٤٠ من بحارة سورية لا أرى بأساً بترجمتها عنه . قال القبقجاقي : « ان رؤساء المراكب في بحر سورية . اذا خيَّم الظلام وحال الضباب دون رؤية الكواكب للاهتداء بها . اخذوا حقاً فملأوه ماء وجعلوه في بطن السفينة ليستذروا من النسيم . ثم اخذوا عود اقاقيا أو

انبوبة قصب وغرزوا في عرض الانبوبة ابرة ، والقوها في الحق، ثم يتناول الرئيس حجر مغنطيس ملء قبضته أو اقل ويدنيه من وجه الحق . ويديره حوله فتدور معه الابرة ثم يكف يده فجأة ، فاذا بالابرة تكف عن الدوران ، وقد اتجه احد طرفيها الى الجنوب والآخر الى الشمال . هذا ما رأيته بعيني في اثناء رحلة لي في البحر بين طرابلس الشام والاسكندرية سنة ٦٤٠ »

« وقيل لي ان الملاحين في بحر الهند يتخذون بدلاً من الابرة وعود الاقاقيا سمكة من الحديد مفرغة رقيقة الجدران لتبقى عائمة اذا ألقيت في حق الماء ، فهي تشير برأسها وذنبها الى الجنوب والشمال » اه

وفي خطط المقريزي (١ / ص ٣٣٩) كلمة أشار اليها فراند عن استخدام سمكة المغناطيس في بحر الهند لمثل ذلك . غير ان المقريزي لم يذكرها في كلام تعمده عن ادوات الملاحة ، بل جاءت عرضاً في مثل ضربهُ في عوم الاجسام الثقيلة المفرغة . ولولا ذلك لتجاوز عنها المقريزي كغيره

وترى القيقجاقي لم يصف الحق لولا انه رآه في رحلته وهو غريب عن حرفة الملاحة فاستطرف ما له من حسن الفائدة

وقد تكرر ذكر الحق والخن والدايرة وضرب الابرة بالمغناطيس وما اشبه . وذلك في دفاتر النوتية من اهل العصور الماضية . كقول احدهم في « اصول علم البحار » :

وجوِّدِ الآلةَ من قبلِ السفرْ من حقةٍ ومن قياسٍ وحجرْ

يريد بالحجر حجر المغناطيس . وقوله :

وانصب لها دايرة افقيَّة في الصحف او في الرق بالسويَّة
اشارة كالافق في ذيل السما وخط بالخطوط فيها قسما
ثلاث مئة وستين درج في وسطها عود لتحظى بالفرج
للخنِّ في الحقة من هذا الدرج ربع واحدى عشرة دون حرج

أما دواوين اللغة فقد أغفلت حق الملاحين[1] ولعل ذلك لأنه بين ايدي النوتية العرب من قديم الدهر وهو ليس سوى الوعاء لابرة

(١) من الغريب ان دوزي في كتابه « تكملة المعجمات العربية » أغفل ايضاً الحق بهذا المعنى وذكر الحك نقلاً عن محيط البستاني ، ولا ريب ان البستاني نقل عن بعض المصنفات الغربية فالتبست عليه القاف بالكاف ، لأن الحرف اللاتيني لكليهما واحد

المغنطيس . فلم يروا فيه سوى معنى الوعاء فاقتصروا على تفسيره بالوعاء

اما الملاحون فقد اطلقوا الحق مع توالي الايام على ما استخدموه له فكان حكمه عندهم كحكم لفظة Boussole قال العلامة ليتره « انها تصغير Bosso بالطليانية » اه وهذه معناها الوعاء . فاللفظة الاولى ليست سوى ترجمة الحق لانه الوعاء الصغير

وذكر دوزي له القرميط وزعم ان العرب أخذته عن الاسبانية من لفظ calamida واستظهر على زعمه بقول احد الاغفال

اطدق الناسم يوماً (فقعة) في القرميط
مات منها كل حوت كان في البحر المحيط

مع ان لفظ calamida من « القلم » وهذا اللفظ الاخير وان كان وارداً في اللغة اللاتينية قديماً ، انه قديم ايضاً في اللغة العربية ولم يزل مستعملاً فيها ولهذا الحرف في العربية من السعة وكثرة المشتقات ما يدل على اصالته فيها . فالأشبه ان calamida منقول عن البحارة العرب والذين استخدموه لهذا المعنى نظروا الى انبوبة القصب التي تغرز فيها الابرة . ويؤيد ذلك ما نقله ليتره في هذا الحرف من كلامهم في القرن السادس عشر وهو قولهم calamite du ? Boussole

وفي اساطير الصينيين مايفيد انهم عرفوا ابرة المغنطيس منذ القرن الثاني للميلاد ولكنها كانت مختصة بالزايرجات واعمال الكهانة يستدل بها العرافون على القطب الجنوبي للقيام ببعض التقاليد الدينية فان الجنوب عندهم قبلة الملك على عرشه والميت في قبره . ومخالفة ذلك عندهم شؤم

الفينيقيون(١)

ومن جرى على اثارهم . وارض التبر والطريق اليها

قلنا ان تواري الدنانير بعد حرب مئة سنة دفع الملوك الى البحث عن مناجم الذهب وان جهاد الملاحين في هذا السبيل هداهم الى أقصى المشرق وانتهى بالطواف حول الارض . وان ديادبة الاصقاع العربية كانت لهم يد في حسن الهداية وذلك للمهارة الموروثة غير كلالة من زمن الفينيقيين .

وسنرى ان اهل هذه الاصقاع كانوا على علم بالمعادن المنشودة .

وأما استخدامها للملاحة عند الصينيين فلجبريل فراند فيه بحث مستفيض يؤخذ منه (صفحة ٧٥) ان اقدم نص صيني صريح يرجع الى سنة ١٠٨٦ للميلاد « وانه لا يخص الملاحين الصينيين بل ملاحي الخليج الفارسي » اه

وأما حجر المغنطيس فيقال ان الصينيين عرفوه قبل الميلاد بألفي سنة . لوجوده في أرضهم . وقد عرفه اليونان قديماً ايضاً ولفظ مغنطيس مأخوذ من لفظة مغنيسيا (مانيسا) وهو اسم مدينتين لليونان احداها في مقدونيا والاخرى في آسيا الصغرى قرب ازمير . وهذا الحجر من معادنهما

(١) البصير ١٩٤٣/٤/١٩

وقد استمرت طريقتهم في التماسها والمقايضة بجواهرها على وتيرة واحدة الى زمن الاكتشافات كما كانت في سالف الحقب .

ولا بدع فان شرق هذا البحر المتوسط كان مشرق التجارة منه انطلاق رسلها وفي حقائبهم احكام الحضارة ونور العرفان .

٥ ٥ ٥

ولا محيص للتجارة عن الذهب لانه القطب عليه مدارها . وما أصدق ما وصفه به القزويني حيث قال :

« هو أشرف نعم الله على عباده . اذ به قوام امور الدنيا ونظام احوال الخلق لاضطرارهم اليه في حاجاتهم . فان كل انسان محتاج الى اعيان كثيرة من مطعمه وملبسه ومسكنه وسائر حاجاته . ولعله يملك ما يستغني عنه كمن يملك الثياب وهو محتاج الى البر (الحنطة) . ولعل صاحب البر لا يحتاج الى الثياب فلا بد من متوسط يرغب فيه كل أحد فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير متوسطين بين الاشياء حتى يبذلا في مقابلة كل شيء . ويبذل في مقابلتهما كل شيء فهما كالقاضيين بين جميع الناس يقضيان حوائج كل من لقيهما ، ولذلك قال الله تعالى : « والذين يَكنِزونَ الذهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقونَها في سَبيلِ اللهِ فبشِّرْهُم

بعذابٍ أليم » لان المقصود تداولهما بين الناس لقضاء حوائجهم فمن كنزهما فقد أبطل الحكمة التي خلقتا لها كمن حبس قاضي البلد ومنعه ان يقضي » اه.

وقد شهدنا اليوم ما جرَّه الغلاء من البلاء بعد عزل هذا القاضي.

٥ ٥ ٥

خلاصة القول ان الذهب والتجارة رفيقان لا يفترقان . فحين كانت الصناعات بايدي الشرقيين كانت لهم عين لا تغفل عن موارد هذا الاصفر الوهَّاج . فاذا نظرنا الى اسلوبهم في استخراج ركازه والحصول عليه قبيل انصراف الغربيين الى الاكتشافات . وعارضناه باساليب المتقدمين . ظهر لنا تأصل هذه السنن في شرق البحر المتوسط .

ومعادنه المشهورة عندهم كثيرة كسُفالة التي ذهب بعض العلماء مؤخراً الى انها أُوفير عهد سليمان والعلاَّقي وغيرها . ولنذكر منها مثلاً بلاد التبر . ولا بأس ان ننقل قبل ذلك ما وصفوا به سبيلهم اليها لما فيه من الغرابة :

قال ياقوت في كلامه عنها . وهو من اهل المئة السادسة وصدر السابعة (٥٧٤—٦٢٦هـ) :

« بلاد التبر اليها ينسب الذهب الخالص . وهي في جنوب المغرب.

وتسافر التجار من سِجِلْماسة الى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة. وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر وخرز الزجاج الازرق وأسورة نحاس احمر وحاق وخواتم نحاس يحمّلون منها الجمال الوافرة القوية اوقارها ويحملون الماء من بلاد لمتونة . وهم الملثمون في الروايا والاسقية . ويرون مياهاً فاسدة مهلكة ليس لها من صفات الماء إلا التميع. فيحملون الماء من بلاد لمتونة ويشربون ويسقون جمالهم حتى يصلوا الى غانة بعد مشاق عظيمة . فينزلون فيها ويتطيبون [1] ثم يستصحبون الادلاء

---

(١) قد يُستغرَب التطيب هنا ولكنهم تطيبوا لما في سبيلهم من الاشراف على التلف ، فانها من عادات فتيان العرب وأهل النجدة اذا استقبل احدهم امراً يرى فيه الهلكة أو وطّن نفسه على القتل في سبيل ما يريد . أن يتطيب . فما جاء في السِيَر من هذا القبيل (في الامامة لابن قتيبة) : لما كان الصباح الذي قتل فيه عبدالله بن الزبير « اغتسل ثم تحنط وتطيّب ثم تقلد سيفه وخرج » اه . ومثل هذا كثير في أخبارهم . ومنــه عندهم في الجاهلية حلف المطيِّبين حين أرادوا توثيق العقد . ففي تهذيب الازهري (ح ل ف) : « لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي بني عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية وأبت بنو عبد الدار . عَقَدَ كلُّ قوم على امرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا فخرجت عبد مناف بجفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم ايديهم فيها وتعاقدوا ثم مسحوا الكعبة بايديهم توكيداً » اه . وأرى في عادة التطيّب هذه المعنى الصحيح لقول زهير :

ويستكثرون من حمل المياه ويأخذون معهم جهابذة وسماسرة لعقد المعاملات . فيمرون في طريقهم على صحاري فيها رياح السموم تنشف المياه داخل الاسقية فيتحيلون بحمل الماء ليرمّقوا به . وذلك انهم يستصحبون جمالاً خالية لا أوقار عليها يعطشونها . قبل ورودهم الماء . نهاراً وليلاً . ثم يسقونها نَهَلا وعَلَلاً الى ان تمتلىء اجوافها ثم تسوقها الحداة . فاذا نشف ما في اسقيتهم واحتاجوا الى الماء نحروا جملاً وترمّقوا بما في بطنه واسرعوا السير حتى يردوا مياهاً أخر فيملأون منها اسقيتهم ويسيرون مجدين بعناء شديد حتى يَقْدَموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين اصحاب التبر » .

وبعدما تقدم من وصفه مشاق الطريق قال :

« فاذا وصلوا ضربوا طبولاً معهم عظيمة تسمع من الافق الذي

تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وهي من التقاليد القديمة عند الكنعانيين ومن جاورهم . ففي انجيل متى (٢٦/٦و٧و١٢) : فيما كان يسوع في بيت عنيا « دنت اليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فأفاضته على رأسه وهو متكىء » وان التلاميذ غضبوا فقال لهم يسوع « ان هذه اذ أفاضت هذا الطيب على جسدي انما صنعت ذلك لدفني » اه

يسامت هذا الصنف من السودان ويقال انهم في مكامن واسراب تحت الارض . عراة لا يعرفون ستراً كالبهائم .

فاذا علم التجار انهم قد سمعوا الطبل اخرجوا ما صحبهم من البضائع. فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتي السودان ومعهم التبر . فيضعون الى جانب كل صنف مقداراً من التبر وينصرفون .

ثم يأتي التجار بعدهم . فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد ان يضربوا طبولهم » اه.

ه ه ه

اما الطريق التي وصفها ياقوت من سواحل البحر المتوسط الى وادي النيجر فان الملثمين المعروفين اليوم بالطوارق قد عرفوها من قبل التاريخ الميلادي وهم من اصل فينيقي ايضاً غير ان البحارة الفينيقيين كانوا قد عرفوا طريقاً من سواحل المحيط أقل مشقة من قطع الاولى وما يعترضها من انبساط الصحارى .

فلننظر في سبيل هؤلاء في المقايضة لايضاح ما بينهم وبين اولئك من وحدة الاسلوب .

قال هيرودتس (١٦٩/٤) وهو قبل ياقوت بنحو الف وثماني مئة سنة :

« من اخبار القرطجيين ان ما بعد أصنام هرقل (أي جبل طارق اليوم) بلاد آهلة بالسكان يقصدونها للتجارة. وهم اذا بلغوها اخرجوا من مراكبهم ما حملوه من السلع، فصففوها على الساحل ثم عادوا الى المراكب فأوقدوا النيران. حتى اذا ما سطع دخانها ورآه اهل تلك البلاد أقبلوا بما معهم من التبر فوضعوا منه الى جانب السلع ما يحسبونه وافياً بثمنها ثم يبتعدون.

وعندها ينحدر القرطجيون ثانية وينظرون الى مقدار التبر الذي تركوه لهم. فان ارتضوه اخذوه وانصرفوا وإلا عادوا الى المراكب يرقبون الزيادة فيقبل الاهالي ثانية ويزيدون. ولا يزال ذلك دأبهم الى ان يرتضي الفريقان. ولا يعتدى احد لا القرطجيون يمسون الذهب قبل ان يعدل سلعهم ولا الاهالي يرفعون السلع دون ان يأخذ القرطجيون الذهب » اه.

٥ ٥ ٥

ولا بد لي من القول هنا كذا كانت فتوحات الفينيقيين بالسلم

للتجارة والحضارة والعرفان . لا كفتوحات الرومان بالسيف والنار . احرقوا قرطجه وقوضوا سلطانها وتركوا المدنية تنعي أبد الدهر اول من شيد اركانها .

الملثمون[1]

والطوارق واخلاقهم

قلنا ان الطريق التي وصفها ياقوت من سواحل البحر المتوسط الى وادي النيجر قد عرفها الملثمون قبل التاريخ الميلادي . وهم من اصل فينيقي . يعرفون اليوم بالطوارق . وهيرودتس يسميهم (ناسامون) وبروكوب يسميهم (الفاسطينيين) . وبعض من جاورهم من العرب يسميهم البربر .

اما تسميتهم الملثمين فلأن رجالهم اتخذوا اللثام . وقد وهم ابن حوقل في زعمه ان تلثمهم لاعتقادهم ان الفم سوءة . وانما الصواب ان التلثم من عادات فرسان العرب في بادية سورية . وهي من العادات الموروثة

---

(١) البصير ١٩٤٣/٤/١٩

عن السلف . وهـذا مما يستأنس به في الاستدلال على نسب الملثمين واصلهم الكنعاني .

والاشبه ان منشأ هذه العادة اتقاء النقع في الغارات ودفع هجير الصحراء . ولذا قال ذو الرمة :

قليلٌ على اكوارِهنَّ اتقاؤنا صلا القيظِ إلاَّ أنَّنا نتلثَّمُ

وقال ابو الطيب :

شديدُ ثباتِ الطرْفِ والنقعُ واصلٌ
الى لهَوَاتِ الفارسِ المتلثّمِ

وقد لزموا التلثم في المغازي والاسفار حتى صار من ازياء الفرسان ولذا قال ابو الطيب يصف الخيل في الحرب :

لهـا في الوغى زِيُّ الفوارسِ فوقَها
فـكلُّ حِصانٍ دارعٌ مُتلثّمُ

وصاروا يشيرون بالتلثم الى كثرة الوقائع ومنه قوله :

سأَطلبُ حقي بالقنا ومشايخٍ
كأَنَّهمُ مِن طولِ ما التثَموا مُرْدُ

وقد اكثر ابو الطيب من ذكر التلثم مما دل على شيوع هذه العادة عند عرب الشام فهو يمثل اللثام ابداً حول الوجه حتى يكاد يكني عنه به كما يكنون عن الصدر بالجيب . ومنه قوله في سيف الدولة الحمداني التغلبي :

فلا زالتِ الشمسُ التي في سمائِهِ مُطالِعةَ الشمسِ التي في لثامِهِ

وقال في بدر بن عمار :

نَطِقٌ اذا حَطَّ الكلامُ لثامَهُ أعطَى بمنطِقِهِ القلوبَ عقولا

فدل على ان هذا الامير كان متلثماً حتى في مجلسه لا يرفع لثامه إلا اذا اراد الكلام . وقال الواحدي عند هذا البيت : « كانت العرب تتلثم بعمائمها فاذا ارادوا ان يتكلموا كشفوا اللثام عن افواههم » .
اما شأن العمائم هنا فلأن التلثم عندهم ان يرد الفارس طرف عمامته على انفه او فمه .

ولذا قالت العرب : لما وضعوا عمائمهم عرفناهم . وهو ما اراده سُحَيمُ بن وُثَيل بقوله من ابيات تمثل بها الحجاج في مسجد الكوفة وقد دخله وصعد المنبر وهو ملثم بعمامة حمراء فحسبوه واصحابه خوارج فهمّوا به حتى اذا اجتمع الناس كشف عن وجهه وقال :

أنا ابنُ جَلا وطَلّاعِ الثنايا ... متى أَضعِ العِمامَةَ تعرفوني

فكنى الشاعر بوضع العمامة عن إماطة اللثام . والا فلو كان مجرد الحسر عن رأسه لبدت صلعته فتنكر .

ومثله قول الاعشى :

لمّا رأونا كشفنا عن جماجِمنا ... لِيعلموا أننا بَكرٌ فينصرفوا

وقول ذي الرمة :

أُحِبُّ المكانَ القفرَ من أجلِ أنني ... به اتغنّى باسمِها غيرَ مُعجِمِ

فلمّا رأيتُ الدارَ غشّيتُ عمّتي ... شآبيبَ دمعٍ لِبسةَ المتلثِّمِ

مخافةَ عيني أن تنمَّ دموعُها ... عليَّ بأسرارِ الضميرِ المكتَّمِ

وقال رؤبة وقد طال السفر فكان ينقض العمامة تارة ويلوثها اخرى :

كذَّبَ عني وجعَ الاوصامِ ... ذكراكَ إلا أن ترى اسلهمامي

ونقضِيَ العِمَّةَ واعتمامي ... ونَصبَ وجهي سافرَ اللثامِ

فالأشبه ان عادة التلثم عند الطوارق موروثة عن الشرق وقد رسخت في قبائلهم بالمغرب حتى انهم فيما حكى ابن حوقل يتلثمون وهم

اطفال . فلولا انها عادة موروثة من قديم الدهر لما اصبحت سنة لايحيدون عنها ونسباً به يعرفون

° ° °

وهم يختلفون عن اهل افريقيا بملامحهم واشراق الوانهم وفي ذلك ايضاً دليل على انهم جالية طرأوا على تلك الديار واستوطنوها وانتشروا في براريها فتشعبوا افخاذاً وقبائل

وقد تنبه ابن حوقل الى هذا الخلاف في السحنة فقال: « وفي كثير منهم ألوان حسنة ومحاسن فائقة في خلقهم ، وابدان نقية ، حتى يأخذوا بجهة الجنوب فتستحيل الوانهم » اه .

وهم اهل بأس ونجدة مفطورون على الفروسية سريعون الى اختراط السيوف وخوض غمار الحرب ولذا كثيراً ما كان ينشب القتال بين قبائلهم . وركابهم المهاري ، يقال انهم يطوون عليها في اليوم الواحد ما لا يكاد يقطعه الفارس المجد في اربعة ايام

° ° °

وممن جاسوا ديارهم حواضرها وبواديها وعرفوا الكثير من اخلاقهم ابن حوقل وكان رحيله الى تلك الارجاء في سنة ٣٣١ هـ . ومما وصف به اهل البادية منهم قوله :

وفيما بين اوذغست وسجلماسة غير قبيلة من قبائل البربر متعزبون لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية العازبة فمن ذلك بنو مسوفة قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة لا يعرفون البرّ ولا الشعير وفيهم من لم يسمع بهما الا بالمثل وأقواتهم الالبان وفي بعض الاوقات اللحم . وفيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم . ولهم ملك يملكهم ويدبرهم تكبره صنهاجة وسائر اهل تلك الديار لأنهم يملكون تلك الطريق . وفيهم البسالة والجرأة والفروسية على الابل والخفة في الجري والشدة والمعرفة بأوضاع البر واشكاله والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة . ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة إلا من قاربهم وسعى سعيهم »

ه ه ه

وهنا شبههم ابن حوقل في الهداية بما عند التتار اذا لبست الثلوج عليهم المسالك [(١)]

---

(١) ومما وصف به التتار من أهل بخارى وما جاورها قوله :

« انه يحكى عن أهل فرغانة واشروسنه واسبيجاب وخوارزم من الهداية والاستدلال في الظلام والليل البهيم بغير نجوم والنهار المطبق بالقتام والركام وسقوط الثلج بحيث ينكر المرء من لديه على خطوات ولا يراه للضباب وهم في ذلك يجرون

ثم عاد بن حوقل الى الكلام عن بني مسوفة وغيرهم من الملثمين فقال :

« ورأيت من بعض هذا القبيل وقد اثيرت جمال أراد هذا الرجل بعضها وقد قعد على طريقها وهي نافرة شاردة وكانت باجمعها فحولاً بزّلاً فقبض على كُراعه وهو نافر وقد ساواه في العدو فمنعه الحركة الى ان ضرب به الارض ونحره فكأنه نحر عنزاً او قصب جدياً »

« ولهم خلق تام وحول وجلد عام في نسائهم وفي رجالهم . ولم يُرَ لأحدهم ولا لصنهاجة مذ كانت ، من وجوههم غير عيونهم وذلك انهم يلثمون وهم اطفال وينشأون على ذلك » اه.

ويسيرون وقد استوت فجاج الارض وأوعارها وجبالها وأوديتها بما استولى عليها من الثلوج فصارت كالستوية الارجاء وهم غازون فيقول قائلهم اين نحن وعلى أي أشجار نسير وبأي واد وعلى أي قتر من الجبل الفلاني انتم فلا يخرم مجيبه فيما يجيبه به » انتهى .

قلت لابدع فان ما نراه من قواطع الطير وتنقلها بين الصرود والجروم أبلغ وأبعد مدى . انظر الى السنونو مثلاً كيف ترحل مع الربيع ثم تعود معه فلا تضل المنزل والسقف والوكر الذي بنته في عام مضى فكأن العزة الالهية ألهمت جوّابي البادية هذه الهداية الغريزية التي فطرت عليها الطير لأنهم مثلها في الحاجة اليها .

الملثمون «٢» (١)

والكنعانيون والنسمون و (ناس عمّون)

فما اشتهر به الملثمون من البسالة وقوة البنيـة وما وصفهم به ابن حوقل من شدة الاسر وتمام الخلق يترجح معه كلام بروكوب في نسبتهم الى فلسطين لأن القوم الذين غزا يشوع بن نون وجماعته بلادهم كانوا ابطالاً موصوفين باستحكام الخلقة كالاموريين و بني عناق وغيرهم.

ففي سفر عاموس (٢ / ٩) : « ان الاموريين مثل قامات الارز قاماتهم وصلابتهم كالبلوط » . وفي سفر العدد (١٣ / ٣٣) : ان الجاسوسين اللذين انفذهما موسى لنفض ارض الكنعانيين عادا يقولان « انها ارض تأكل اهلها وجميع رجالها طوال القامات جبابرة وقد رأينا جبابرة بني عناق فصرنا في عيوننا كالجراد وكذلك كنا في عيونهم » . (وفيه ١٤ / ١ — ٣) : ان الجماعة (اي جماعة موسى) رفعوا أصواتهم وبكوا في تلك الليلة وتذمروا على موسى وهرون وقالوا لهما ياليتنا متنا في ارض مصر » وفيه « لماذا اتى الرب بنا الى هذه الارض حتى نسقط تحت السيف » اه

---

(١) البصير ١٩٤٢/٦/١٥

وذلك قوله في التنزيل : « ان فيها قوماً جبارين » وقوله : « قالوا ياموسى إنا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » اه

وفي التوراة من وصف الوقائع التي دارت بين الكنعانيين والذين اقتحموا ارضهم في شرق الاردن مادل على انهم مساعير حرب اقاموا على الذود عن دورهم ومراعيهم مايربي على خمس مئة سنة كانت الحرب فيها سجالاً . وما هجرها من ابقته السيوف منهم الا بعد ما اكلت النار قراهم وذبحت ذراريهم واستنزفت المغازي اموالهم

فنسبة الملثمين الى فلسطين في كلام بعض السياح قد يكون مما يعرفهم به جيرانهم في الحواضر . ولعله مما تناقلوه عن اسلافهم في تذكرهم البلاد التي نزحوا عنها لأن اخوان الاعراب مثلهم في الحرص على انسابهم . وكلام بروكوب وهو من اهل المئة السادسة للميلاد . كلام من لا يخالجه ريب في نسبهم حيث قال :

عند ما عجز اهل فلسطين عن صد الغزاة عن بلادهم هجروها الى مصر ومنها الى ليبيا فتبسطوا فيها حتى بلغوا اصنام هرقل . وشادوا في نوميديا حصناً قرب تيجيسس (عين البرج) ولهم قرب العين

صفيحتان من الرخام الابيض نقشوا عليهما بالحرف الفينيقي واللغة الفينيقية : « اننا لحقنا بهذه الديار هرباً من قاطع السبل يشوع بن نون» اه

خلاصة القول انهم لولا غربتهم في ليبيا لما تعددت نعوتهم فهم فلسطينيون يباينون جيرانهم بالسحنة والطباع وهم الملثمون فيخالفونهم في الزي .

واما لفظ « ناسامون » كما يسميهم هيرودتس وديودور الصقلي وغيرهما من مؤرخي اليونان فليس من اللسان اليوناني[1] ولعله « ناس امون » او « ناس عمون » الاول نسبة الى الاله جوبيتر امون ، والثاني ولعله الارجح نسبة الى مدينة عمون القديمة وهي عمان حاضرة العمونيين ، وآثارها في شرق الاردن باقية الى هذا العهد على نحو ٩٥ كيلومتراً شمال شرق اورشليم .

---

(١) واراد بلين ان يجد معنى للفظ ناسمون . ففي كلامهِ عن سكان القيروان قال (٥/٥) : « على سواحل « سيرت » يقيم الناسمون الذين سماهم اليونان ميسمون Mesammons لاقامتهم بين الرمال » اه .

ولكن هذا الاسم لم يذكرهم به أحد لا قبل بلين ولا بعده . وبلين نفسه يسمهم Nasamons وبه عرفهم كل من تحدث عنهم من هيرودطس وهو قبل بلين بست مئة سنة حتى زمن البيزنطيين .

اما الاله جو بيتير امون فقد كان له هيكل شهير في واح[1] صيوه يحجُّهُ الناس و يعظمونه. وكان الاسكندر المكدوني في ماروا ه ديودور الصقلي (١٧/ ٥٠) ممن زاروا هذا الهيكل وطافوا به . ويوجد هيكل آخر وهو في واح اوجلة جنوبي برقة . غير ان المشهور هو الاول وأرى بلين الاكبر يسمي هيكل القيروان (د/ه) : Hammonis Oraculo يبدأ الاسم بحرف H كأنه بدل من العين ثم انه يضاعف الميم . ولا يمكن رسم عمون بالحرف اللاتيني بأفضل من هذا .

والعالم الاثري كليرمون غانو في كلامه عن الهيكل الثاني قال ما معناه (الآثار الشرقية ٧/ ٩٠) : « ليس في نظري بمستنكر ان يكون لفظ ناسامون متضمناً اسم امون وعلة ذلك ان تكون عبادته ذاعت في ليبيا على يد الناسامون » اه

غير اننا نجد في كلام هيرودتس وديودور كليهما فرقاً بين الناسامون والامونيين

فديودور (١٧ / ٥٠) يسمي القرى حول الهيكل الاول قرى الامونيين . واهلها الامونيون وبلادهم تتصل من الجنوب بالاثيوبيين

---

(١) قال ياقوت « الواحات واحدها واح على غير القياس » اه .

واما الناسامون فيطلقه على امة غيرها منبثة في شمال بلاد الامونيين وهيرودتس (٢ / ٤٢) نص على ان الامونيين هم المنسوبون الى الاله امون وهو عند المصريين اسم الاله جوبيتير ووصفهم بانهم مواليد بين الاثيوبيين والمصريين وان لغتهم كذلك مؤلفة من تداخل لسان هاتين الامتين

ثم قال (في ٤/١٨١) ما خلاصته ان صحارى ليبيا تمتد من ثيبة مصر الى ان تبلغ أصنام هرقل [١] والراحل من ثيبة في الصحراء يرى على مسيرة عشرة ايام واحاً يقطنه الامونيون ولهم فيه هيكل جوبيتير وعنده عيون ماء يسقون منها بساتينهم . الخ. ثم قال (٤ / ١٨٢) : « وبعد مواطن الامونيين بمسيرة عشرة ايام واح أوْجلة ونخيله لقبائل الناسامون » . اه

فالناسامون غير الامونيين في سحنتهم ولغتهم ومواطنهم . وهيكل اوجلة غير الهيكل الشهير الذي يحجه الناس . والامونيون في قول سيّد المؤرخين هم المنسوبون الى الاله امون وليس الناسامون . لهذا لا نجد وجهاً للريب في ان ناسامون منسوبون الى عمُّون حاضرة العمُّونيين

---

(١) هيرودوتس (٤ / ٤٢) وغيره من اليونان يطلقون اسم ليبيا على ما نسميه اليوم قارة افريقيا .

القديمة . فقولهم ناس عمون بمثابة قولنا قوم عمون او بنو عمون . وفي سفر العدد والتثنية والقضاة تكرر ذكر بني عمون . وكانت بينهم وبين يفتاح وشاول وقائع دامية . وقد لبثوا في الذود عن ذمارهم الى زمن داود

٥ ٥ ٥

وهذه المشابه والانساب بين الملثمين والكنعانيين لم تكن مقصورة على وثاقة الاوصال والثبات في ميادين القتال بل ان تهيؤهما للحضارة واحد .

ففي باشان مثلاً لعهد عوج ملكهم كانت مضارب الفلسطينيين في الصحراء كثيرة جداً . وكان لهم ايضاً من الحواضر (تثنية ٣/٤ و٥) ستون مدينة « كلها مدن محصنة باسوار شامخة وابواب ومزاليج » اه. فهم اهل بادية وحضارة في آن واحد [١]

وكذلك نجدهم في صحارى ليبيا ، فانهم وان تبسطوا في قفارها فقد اشتهر لهم من الحواضر لمتونة وغانة واوذغست وسجلماسة وغيرها

---

(١) وفي التوراة الشواهد كثيرة على ما كانت عليه باشان من ضخامة الملك وما اتصف به اهلها من البسالة . ففي التثنية (٣/١٣) : « كانت كل ارض باشان هذه تسمى ارض الجبابرة » اه .

وهي من ارض كنعان واقعة شرقي الاردن بين جبلي حرمون وجلعاد ،

ومع مايعترض التجار من العقبات في الوصول اليها كانت اسواقها مثلاً في الرواج والغنى

ومما ذكره ابن حوقل عن سعة الثروة فيها قوله : « قلَّ مايدانيها التجار في بلاد الاسلام سعة . ولقد رأيت صكاً كتب بدَين علَى محمد ابن ابي سعدون باوذغست وشهد عليه العدول باثنين واربعين الف دينار » اه . اي نحو ثلاثة وعشرين الف جنيه ذهب

وكانت تشمل حوران والجولان واللجاه . يحدها شمالاً أراضي دمشق وشرقاً بادية سوريه وجنوباً ارض جلعاد وغرباً غور الاردن . ويخترق جانبها الشرقي جبل باشان القديم وهو المعروف اليوم بجبل الدروز

واعهد يشوع كان ملك باشان الجبَّار عوج . وفي سفر التثنية (٣ / ١١) : « عوج هذا هو وحدَهُ بقي من الجبابرة وسريره من حديد لم يزل في رَبَّة بني عمُّون طوله تسع أذرع وعرضه اربع أذرع بذراع الرجل » اه

وقس على باشان سائر حواضر فلسطين . ففي سفر القضاة (٤ / ٣) : فى الكلام عن ملك كنعان ان رئيس جيشهِ « كانت له تسع مئة مركبة من حديد وقد ضيَّق على بني اسرائيل بشدة عشرين سنة » اه

وفى سفر الملوك (١ / ١٣) (فى طبعة الامريكان صمويل ١ / ١٣) حين ضرب شاول محرس الفلسطينيين فى جَبَع : « اجتمع الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل ثلاثين الف مركبة وستة آلاف فارس وشعب مثل الرمل الذي على سواحل البحر » اه . ولما رأى رجال اسرائيل انهم فى ضنك « اختبأ الشعب فى المغاور والغياض والصخور والابراج والآبار » اه .

غانة وغينه (غينيا) [1]

والجنيه المصري

قلنـا ان الطريق من سواحل البحر المتوسط الى وادي النيجر عرفها اهل البادية في شمال افريقية قبل الميلاد بما لا يقل عن ست مئة سنة .

فقد روى هيرودتس (٣٢/٢) عن اناس لقيهم في القيروان : ان جماعة من الفتيان من اعيان قبائل ناس امون معروفين برباطة الجأش والجرأة اقترعوا يوماً فيما بينهم على خمسة منهم يقطعون صحاري ليبيا الى الغرب الجنوبي ليعلموا ما وراء تلك الرمال . فحملوا ما اطاقوا من الزاد والماء وجابوا قفاراً شاسعة وغابات كثيفة وبراري غامرة وبلاداً سكانها اقزام سود . حتى انتهوا الى وادي نهر عظيم حسبوه من روافد النيل . اه.

وكذا ظنه هيرودتس . ولكن الوصف يدل على انه نهر النيجر .

وقد مر بنا كلام ياقوت في وصف هذه الطريق بعينها وهو لا

---

(١) ١٩٤٣/٧/٧

يختلف عن وصف هيرودتس لها. غير ان ياقوتاً اورد لنا بعضاً من اسماء الحواضر التي احدثتها عليها الايام بعدما طرقتها القوافل كسجلماسة وغانه ولمتونه من بلاد الملثمين .

وكانت غانة من اشهر تلك المدن وأقدمها عهداً وفي تقدير الرحالة بارث انها على رأس المئة الثالثة للميلاد قطنها قوم من السلالة البيضاء . وهو ايضاً قول الرحالة موريس دلافوس غير ان الاول ينسبهم الى قبائل فولانه . والثاني يقول انهم سوريون ويهود .

وسواء كانت غانة معروفة قبل ذلك باسمها هذا او بغيره فان موقعها على طريق الرواحل مناخ للركبان يستوفون منه ما نقصهم من الزاد اذا يمموا وادي النيجر

وبديهي ان قيامها على سبيل الصادر والوارد من مستبضعي الذهب صيَّرها سوقاً فاقبل عليها التجار من الاطراف وتدفقت عليها الخيرات وانبسط سلطانها على البلاد حولها ما بين نهر النيجر من الشرق ورمال الصحراء من الشمال وتكرور من الجنوب والمحيط الاطلنطي من الغرب وأصبحت هذه البلاد معروفة بمملكة غانة وشيدت لدار الملك الحصون المنيعة ويقال ان اميرها كان يخرج في

مئتي الف على النجائب ما بين رامح ونابل

وقد وصفها ابن حوقل بان صاحبها : « ايسر من على وجه الارض من الملوك بما لديه من الاموال المدخرة من التبر المثار على قديم الايام » اه.

وحسبك بمثل هذه النعمة مثيراً للاطماع وجالباً للنزاع فما طال امرها حتى توالت عليها الغارات واتقدت الحروب الى ان داهمها ابو بكر عمر صاحب المرابطين سنة ١٠٧٦ م. فدخل مدينة غانة ووضع السيف في من ضمتهم اسوارها وضرب على مالكها الجزية .

ثم ادركت ابا بكر الوفاة فتخلصت بموته من ربقة الذل واستعادت شيئاً من عزها . ولكن حالها ما برحت على وهن فكثر الدائبون على انتيابها المتشوفون الى اسلابها حتى كانت سنة ١٢٤٠ م فاطبق عليها احد زعماء المالنكي بجموع جرارة فكتم انفاسها وقوّض آساسها وبدد شمل جيوشها ودك منازلها ومعاقلها وتركها خاوية على عروشها .

وانما بقي بعدها اسم مملكة غانة للبلاد التي كانت خاضعة لها ما بين النيجر وتكرور وسواحل المحيط . واما دار الملك فدثر رسمها ويظن انها كانت عند ١٨° من العرض الشمالي و٧°,٨ من الطول الغربي .

ثم بدّلت الايام اسم غانة فصيّرته غينه Guinée ولعله لفظ البعض

من اهلها وقد يكون على الاصل فهم بالعربية يسمون الغِينة الاشجار الملتفة في الجبال والسهول بلا ماء من قولهم غانَ اي عطش • على كل حال ليس هذا الابدال والقلب بأبعد من ابدالهم صنهاجة مثلاً وجعلها السنغال .

ولئن زال الرسم وتبدل الاسم فان التربة ما برحت بلاد التبر .

فلما قام الباحثون عن ذهب اوفير في القرن الخامس عشر على ما بسطناه في الكلام عن بحارة البرتغال كان في ما اهتدوا اليه سواحل هذه المملكة البائدة على البحر المحيط وهم الذين عرفوها بسواحل غينه.

وعادت تلك السواحل سوقاً للذهب وهي على المحيط من اسواق الفينيقيين لعهد هيرودتس وقد نقلنا عنه وصفها في صفحة ٤١ .

فلما اهتدى اليها الباحثون في القرن الخامس عشر توافد اليها الهولنديون وغيرهم . وفي سنة ١٦٨٤ لعهد الملك شارل الثاني ضربت بريطانيا نقودها من ذهب غينه ولذلك سمي الدينار المسكوك منها جنيهاً Guinée وكانت قيمته ٢١ شليناً واستمر هذا اسمه عندهم الى سنة ١٨١٧ [(١)]

---

(١) وقبل الجنيه كان اسم الدينار البريطاني Sterling من زمن هنري الثاني في القرن الثاني عشر فما بعد . وهو مشتق من Easterling أي الشرقي

ولما ضربت الدنانير المصرية وقد عادلت قيمتها الدنانير البريطانية تقريباً اتخذنا لها اسم الجنيه . والحقيقة ان الاسم شرقي استعاره الغرب ثم ردت بضاعتنا الينا .

الغول[1]

ورحلة حنون قبل التاريخ الميلادي

تقدم الكلام عن اهتداء بحارة البرتغال الى شواطيء افريقيا والهند في القرن الخامس عشر وما بعده . وان ذلك لبث على مر الايام محل اعتزاز الغرب وفخره على سائر الاصقاع .

واذا نظرنا الى ما كان قبلهم لفينيقيا وابنائها اهل قرطجة من السيطرة على البحار وامتداد ايدي تجارتها الى سواحل المحيط واقاصي

وبعد الجنيه قالوا سوفرين أي الملك كما قال الفرنسويون لوي من زمن لويس الثالث عشر ونابليون لعهد الامبراطور . وقال البريطانيون ايضاً پَوْند وقد نظروا به قديماً الى ما قيمته بهذا الوزن من الفضة كما قال غيرهم بمعناه ليبره وليره ثم اختلف الوزن وبقي الاسم ومنه اخذنا لفظ ليرة للدينار العثماني .

(١) البصير ١٩٤٣/٨/٩

المعمور قبل ان يدرج الغرب من مهده بل قبل ان تفتح يد الدهر صفحات التاريخ ، بدا لنا نور ضئيل من شأن الفينيقيين وما فطروا عليه من صريمة حذاء وهمة قعساء . وقد فاتنا من ابنية مجدهم الباذخ ما طال جهاد الرومان في سبيل هدمه وتضافرت النوائب على كتمه حتى دفن حديثه عند اهله ودفنت معه لغتهم فلم تذر تقلبات القدر لمستنبطي الحروف من لسانهم حرفاً إلا نقوشاً لانَ لها قلبُ الحجر .

وما عدا تلك النقوش قد تناقل مؤرخو اليونان نبذاً يسيرة من اخبارهم وفيها من دلائل الحكمة وسداد الرأي في الامور الاقتصادية والجرأة على القيام بها ما حمل الناس على الظن انها خرافات موضوعة لتزجية الوقت . نذكر منها على سبيل المثل الرحلة المشهورة المعروفة بالطواف (Périple) وقد ذهب من سالف الدهر اصلها الفينيقي وبقيت منها ترجمة باللسان اليوناني . ومن هذه الترجمة عن الاصل لا يوجد سوى نسخة واحدة محفوظة في مكتبة الفاتيكان . تناقلها علماء الغرب الى لغاتهم واشتهرت تعليقات الرحالة بوغنفيل عليها بما لم يدع ريباً في صحتها .

وهي رحلة قام بها الربان حنون في للقرن السادس قبل الميلاد .

بأمر مجلس الشيوخ في حاضرة قرطجة وكان هذا المجلس قد أجمع على ايفاد بعثين الى شواطىء المحيط لانشاء مدن جديدة يعمرونها بالقبائل الفينيقية الليبية ويحملون اليها الاهل والذراري ليتسع نطاق تجارتهم وتتوافر مرافىء سفنهم ويكون لهم في الاقاصي عمال مؤتمنون .

٥ ٥ ٥

وكان احد البعثين تحت إمرة الربان حملكون وقد فوضوا اليه انشاء الموانىء على السواحل الشمالية من المحيط وقد احسن القيام بما انتدب له ولكن قصته لم تصل الينا . على ان الفينيقيين كانوا من قبله بأعصر طويلة يترددون على البلاد الواقعة تحت منطقة الدب يستبضعون الكهرباء والجلود من بحر البلطيك وسواحل جرمانيا والقصدير من جزر بريطانيا مقايضة بمصنوعاتهم من الخزف والشبه والحديد على ما تقدم ذكرهُ وان في آثار اشور ما يثبت مثل هذه المقايضات مع سواحل البلطيك في المئة العاشرة قبل الميلاد .

وفي تاريخ ديودور (٥/٢٢) ان اتصال هذه التجارة دمث اخلاق الاهلين وكان وسيلة لبثّ الحضارة بينهم ولا سيما سكان رأس بليريوم (كورونوول — على الساحل الجنوبي الغربي من بريطانيا) حتى انهم عرفوا بمغالاتهم في اكرام الضيف .

واما بعث قرطجة الى السواحل الجنوبية من المحيط فكان رئيسه الربان حنون وقد خرج في ثلاثين الفاً من الرجال والنساء والذراري على ستين سفينة عظيمة لكل منها خمسون مجذافاً

وقال الربان حنون في قصة رحلته التي رفعها الى مجلس الشيوخ لدى عودته الى قرطجة (١) :

---

(١) مجلس الشيوخ في حكومة قرطجة قد يراه البعض غريباً فدفعاً لما قد يخالج قلب المطالع اني مورد ما قاله في دستورها الفيلسوف ارسطاطاليس (٣٨٤— ٣٢٢ ق.م) (في سياسة المدن ٢/٨/١) : « ان لقرطجة دستوراً انفردت بكماله عن سائر الدول . وفيه من بعض الوجوه مشابه بدستور اسبرطة . وان احكام اقريطش واسبرطة وقرطجة تكاد تكون من نمط واحدة . وهذه الثلاث في الذروة بالفضل لا تدانيها في صِحَّة سُنَنها امَّة من امم العالم . ولا سيما قرطجة فان لها شرائع غاية في الحسن . ومن الدليل على ما وَعَتْه من الحكمة أنها مع ما للأمَّة عندها من السلطان لم نجدها قط بدَّلت شكل الحكم ولا شبَّت فيها فتنة ولا سيطر عليها طاغية . » اه. — ثم قال (٢/٨/٢) : « ومن تلك المشابه بين اسبرطة وقرطجة مآدب قرطجة التي يدعون اليها الناس عامة . ومثلها عند الاسبرطيين ما يسمونه Phidities . ثم ندوة المئة والاربعة في قرطجة تضارعها في اسبرطة الندوة Ephores . غير ان القضاء عند القرطجيين افضل لأنهم لا يرضون له اغفال الناس بل يولّونه أحسنَهم طريقة وأحمدَهم سيرة . واما الملوك

« بعد ان جزنا اصنام هرقل (جبل طارق) بيومين انشأنا اولى المدن وسميناها ثميتيرية (هي اليوم المهدية) وهي مطلة على سهول رحبة . ثم اقلعنا منها نحو الغرب الى سلو (رأس كنتين) وقد بسقت فوق ارضه اشجار غضة . فبنينا هناك معبداً للاله بوصيدن (لعله داجون). ثم عكفنا الى الشرق مسيرة نصف يوم . فاذا بنا على سمت بحيرة قريبة من الشاطيء تكاثف عليها الأسل والقصب ورعت حولها الفيلة واخدرت في آجامها الضواري .

وارباب مجلس الشيوخ فعند كليهما سواء إلا ان القرطجيين أشد حرصاً على سلامة الحكم فلا يلي الملك عندهم جماعة من اسرة واحدة . ولا يرتضونهم من أية عشيرة كانت . بل يبايعون من يقع عليهم الاختيار . ولا ينظرون الى السن . ليكون الملك بيد اهل الفضل » . اه.

ثم قال (٩/٨/٢) : « اما ما ينشأ عن استئثار الزعماء بالامر فان قرطجة تلافت شرَّهُ بمثابرتها على تمهيد سبل الغنى للأُمَّة بانفاذها جماعات منها على التعاقب الى مستعمراتها ... » اه.

قلت اما المآدب يدعون اليها الناس عامة فقد كانت في بادية سورية في بني بكر وتغلب الى ما قبل الفتح . قال طرفة بن العبد البكري يفخر بهذه العادة :

نحنُ في المشتاةِ ندعُو الجَفَلى لا ترَى الآدِبَ فِينا يَنْتَقِرْ

«وعلى مسيرة يوم عنها انشأنا عدة قرى قريبة من الساحل سميناها حصن قريكون (الجدير) وغيتة وعكرة ومليطة وارنبي».

«ومن ثم انتهت بنا السفن الى لكسوس وهو نهر غَرَّاف منحدر من هضاب ليبيا وعلى مشارعه قبيلة لكسته وقد سرحت مواشيها على ضفتيه. وهي قبيلة عظيمة مضيافة آخيناها وأقمنا عندها اياماً».

«ثم التقينا بعدها باقوام اثيوبيين شُكْس لُكْس لا يقرون الضيف مساكنهم في الادغال وقلل الجبال بين مرابض الوحوش على طريق نهر االكسوس. وهذه الجبال مأوى اهل الكهوف وهم قوم غريبو الخلقة يقال انهم في احضارهم يفوتون الخيل».

«فاستصحبنا تراجم من قبائل اللكست وانطلقنا بمراكبنا نحو الجنوب مدة يومين على محاذاة شواطىء غامرة. ثم انصرفنا نحو الشرق مسيرة يوم. فوقعنا على فرضة فيها جزيرة صغيرة ضربنا فيها خيامنا وسميناها قرنه (Arguin) وهي في تقديرنا تناوح قرطجة من حيث البعد عن اصنام هرقل. لان الرحلة بين قرطجة والاصنام مثل ما بين الاصنام وقرنه».

ولما استأنفنا السير مررنا على نهر طام يسمونه قريت (السنغال)

وانتهينا الى بحيرة فيها ثلاث جزر وبعد مسيرة يوم سامتنا اقصى هذه الجزيرة وقد ارتفع الى جانبها جبل شامخ يقطنه قوم متأبدون لباسهم جلود السباع فذعروا لقدومنا واخذوا يقذفوننا بالاحجار مخافة ان نطأ ارضهم .»

« فاستمرت مراكبنا في مجراها حتى بلغنا فُوَّهة نهر فياض يعج بالتماسيح وأفراس الماء . فانقلبنا راجعين الى جزيرة قرنه ومنها انثنينا صامدين الى الجنوب اثنى عشر يوماً على طَوار ساحل اهلهُ اثيوبيون كانوا يُجفِلون لرؤيتنا فيفرُّون مذعورين . وكان التراجم الالكست الذين صحبونا يجهلون لسانهم .»

« وبعد ذلك بيوم واحد كنا عند سفح جبال غشيتها غياض وادغال أشِبَة . وخشب شجرِها عطِر مختلف الالوان . فسرنا والجبال يومين حتى وردنا خوراً تحف به سهول رحبة . وكنا في الليل نرى نيراناً كثيرة مرتفعة من حولها . فاخذنا مؤونتنا من الماء وسرنا خمسة ايام انتهت بنا الى خليج عظيم علمنا من التراجم انه يعرف بالرأس الغربي (خليج بيساغو — امام غينه) وفي الخليج جزيرة وفي الجزيرة بحيرة مِلحة فيها ايضاً جزيرة فألقينا مراسينا ولم يكن حولنا في النهار ما يلفت

النظر سوى كثرة الرماد . واما في الليل فكنا نرى شواظ اللهب منبعثاً من كل ناحية. وسمعنا اصوات النايات والصنوج وضرب الطبول وضوضاء مزعج . فراعنا ذلك واشار العرّاف بالرحيل فاقلعنا فوراً . »

« وبعد اربعة ايام لاحت لنا في الظلام بلاد تتأجج ناراً وقد ارتفعت من وسطها شعلة أشد اضطراماً وأعلى مناراً حتى حسبناها متصلة بالنجوم ولما طلع النهار اذا هي جبل عالٍ يسمونه مركبة الآلهة . وفي اليوم الثالث من بعد رحيلنا كان مرورنا إزاء سيل من النار دافق . ثم دخلنا ثغراً يسمونه الرأس الجنوبي . وعلى ناحية منه جزيرة كالتي مرَّ وصفها . وفي وسطها بحيرة وفي البحيرة جزيرة ثانية تأوي اليها امة متأبدة اكثر اهلها من النساء . وقد كسا الشعر ابدانهم . وكان التراجم يسمونهم غورلا . فتأثرنا بعضاً منهم . اما الرجال فعجزنا عن اللحاق بهم لقدرتهم العجيبة على توقل الثنايا والقلل الوعرة واجتياز الاخاديد وبراعتهم في رشق الاحجار . »

غير اننا تمكنا من القبض على ثلاث من السعالي نسائهم لكنهن أبينَ الانقياد ومزقنَ بانيابهنَّ جلود رجالنا حتى اضطروا الى قتلهنَّ .

فحملنا جلودهن وعدنا بها قافلين الى قرطجة لنفاد الزاد . » انتهى كلام الربان حنون .

° ° °

اما ما شهده من النيران وقد عم لهيبها الآفاق فدليل على ان مروره بتلك السواحل وافقه حدوث ثوران في سلسلة جبال الكمرون البركانية وان الثوران كان غاية في الشدة حتى شمل تلك الارجاء واما انه كالمتصل بالنجوم فان من تلك القنن ما يزيد ارتفاعه على اربعة آلاف متر . واما ما بدا له من السيول النارية فمعلوم انه اللابة الذائبة المتدفقة من بثوق البراكين .

° ° °

فترى مما تقدم ان القرطجيين كانوا يسلكون السبيل القويم في نشر الحضارة بانشاء المدن والقرى في البلاد النازحة والاراضي المقفرة يعمرونها بالطوارئ منهم ومن الفينيقيين دون الاعتداء على العشائر الضعيفة ولا يطمعون في ملك واحدة منها او استعبادها .

وترى رئيس البعث في قصة رحلته لم يقتصر على خدمة صناعة بلاده وتجارتها . بل نبه على كل ما فيه فائدة للملاحة ومعرفة البلدان

الغريبة بدلالته على تعاريج الطريق بين شرق وغرب وجنوب وعدد ايام السفر بين خليج ورأس وفوهة نهر وسفح جبل بوصف يسهل معه معرفتها . ولم يغفل ما امكن العلم به من نوع حيوان وشجر واخلاق القبائل التي مر بها .

أجل ان عدد الايام بين البقاع يختلف على السفن تبعاً لشدة الرياح وضعفها إلا انه مما يستأنس به .

وعلى الجملة ان قصته لها المنزلة العايا اذا ضوهيت بمفكرات رجال البعوث التي تنفذها اليوم الاندية العامية .

° ° °

اما جلود السعالي التي اتى بها فانها علقت في هيكل بعل ملك بقرطجة ولبثت هناك الى ان احترقت هذه الحاضرة العظيمة بما اضرمته عليها الامبراطورية الرومانية من نيران حسدها ولؤمها وطمعها في اسلابها .

ومعلوم اليوم ان الغورل اشد القردة شبهاً بالانسان يسعى مثله على قدمين وكفه منبسطة باصابع وبراجم ككف رجل جبار . وهو « مستوي القامة عريض الاظفار » لكنه غير « بادي البشرة » اما قامته فبين متر و ٧٠ ومتر و ٨٥ .

وكان المعتقد بالغول عند المتقـدمين والمتأخرين كمعتقد العرب به . والاشبه ان لفظ الغول ومشتقاته مأخوذة قديماً من الغورل .

وما برح العلماء يجهلون شأن الغورل الى سنة ١٨٤٧ بعد ان بلغ ارضه الرحالة سافاج وجاءهم منه بعظام وجلود من تلك الارض التي مرت عليها قبله بالفين واربع مئة سنة اساطيل الربان حنون . فان هذا النوع من القردة يعيش ازواجاً في الادغال والغابات القريبة من خط الاستواء على الساحل الغربي من افريقيا . ويبني اكواخه من القصب والاغصان وهشيم الشجر . وطعامه من الفواكه والخضار . وهو ليس من الوحوش الضارية كما صوَّرته مخيلة الاكثرين ولا هو يعتدي على الانسان بل يهرب منه . غير انه اذا هوجم دفع عن نفسه ببأس شديد . فاذا ضم خصمه الى صدره قتله بقوة ذراعيه .

ومن الذين زاروه في غاباته الرحالة بول دي شالو . ومما قاله في وصف رحلته اني تعقبت ثلاثة اطفال من بنيه . وحين اطلقت النار شقَّ عليَّ ذلك وأنبتني نفسي كأني ارتـكبت جريمة القتل .

ومن بعد الرحالتين سافاج ودي شالو تـكاثرت وفود الصيادين على غاباته للفتك به . وبقيت منه الآن بقـايا قليلة متفرقة في جزيرة

فرنندوبو والسواحل المجاورة . وأهل البلاد ما برحوا يسمونه الغورل .

ولا بدّ هنا من القول ان الغورل والانسان كليهما حيوان مستوي القامة عريض الاظفار والأول اعجم والثاني ناطق والناطق افترس الاعجم فأيهما يكون الغول.

الفينيقيون[1]

أول من أثبت ان افريقيا شبه جزيرة

يؤخذ من كلام الربان حنون انه عاد باسطوله من سواحل الكمرون عند نفاد الزاد .

غير انه لم يرضَ لنفسه بالرجوع إلا بعد بلوغه الغاية من رحلته الغريبة التي لم يزل حديثها مثيراً للاعجاب وفتنة للسامعين . فعاد وقد

(١) البصير ١٩٤٣/٨/٢٥

اختطّ ما شاء من القرى لسكنى الطوارئ الذين صحبوه . وانشأ لهم الموانئ واختار من الثغور آمنها من سطوات الريح ولطم الامواج وأمنعها على عدو مفاجئ . ومن الدليل على مسلكه هذا تنحّيه عن ربوع القبائل المشاكسة المتوحشة . وتوخّيه الجزر لمراسيه ولضرب خيامه للمبيت . ليكون الماء حائلاً بينه وبين البر الى غير هذا مما ارتاض عليه قومه وتأدبوا باستمرار الاسفار وطول مزاولتهم الملاحة .

ولو كانت وجهته أبعد من الكمرون لأخذ لها أهبته . فمن عادة الفينيقيين واخوانهم القرطجيين ركوب الاسفار القاصية تستغرق الرحلة منها ثلاث سنين كما تشهد بذلك التوراة (٣ ملوك ١٠/٢٢) فلا يعجزهم نفاد الزاد ولا يصدهم عن قصدهم طروء مُلِمّة ولا فتور في الهمّة.

وكانت عندهم من السفن لمثل هذه الطيّات البعيدة خلايا عظيمة تعرف بسفن ترشيش وسفن حيرام كما نقول اليوم سفن (بنسولر) او (ترانزاتلنتك)

٥ ٥ ٥

وقد وصف هيرودتس احدى تلك الشقات البعيدة وذلك ان الفينيقيين كانوا معروفين بدربتهم وعلمهم بشكل افريقيا وبما تختلف به عن غيرها من القارّات وان البحار محيطة بها من جميع جهاتها . واتفق

لفرعون مصر نخو الثاني انه احب التثبت من صحة ذلك فانتدب جماعة من بحارة فينيقيا للطواف بمراكبهم حول افريقيا . على ان يكون سفرهم من ساحل مصر الشرقي الى الجنوب عبر بحر القلزم ليعودوا من الغرب الى شاطىء مصر على البحر الشمالي.

° ° °

قال هيرودتس (٤/٤٢) : اني معجب بالذين وصفوا ليبيا وآسيا واوربا . ولا سيما لما بين قارات الارض الثلاث هذه من اختلاف الاشكال . فان اوروبا اطول من القارتين الاخريين ولكني لا اظنها تعدلها في العرض فمما لا ريب فيه ان ليبيا يحيط بها البحر ما خلا جانبها المتصل بآسيا . وان نخو[1] فرعون مصر اول من حقق ذلك فيما نعلم . »

« فانه بعد ما توقف عن كَرْيِ القناة التي كان يريد بها مدّ مياه النيل الى الخليج العربي بعث جماعة من الفينيقيين بالمراكب وأوجب عليهم

---

(١) الكلام عن نخو الثاني وهو من الاسرة السادسة والعشرين . وقد رقي عرش مصر سنة ٦١١ قبل الميلاد وتوفي سنة ٥٩٥ .

ان يكون ايابهم على طريق البحر الشمالي[١] فيمرون باصنام هرقل[٢] ومنها يعودون الى مصر » .

« فاقلع الفينيقيون من بحر ارثرة (البحر الاحمر) ثم جروا في البحر الجنوبي حتى اذا ادركهم فصل الخريف كلأوا سفنهم حيث كانوا من سواحل ليبيا[٣] وبذروا الحنطة واقاموا الى زمن الحصاد . فجمعوا الحب واستأنفوا سيرهم . وكان ذلك شأنهم مدة سنتين . وفي الثالثة جازوا باصنام هرقل عائدين الى مصر » .

« ولكنهم لدى وصولهم اخبروا بانهم عندما دارت السفن حول ليبيا كانت الشمس الى يمينهم . وهذا ما لا اصدقه ولعل غيري يستسيغه وهكذا عرف شكل ليبيا لأول مرة . » انتهى كلام هيرودتس .

° ° °

اما ما انكره هنا شيخ المؤرخين على الفينيقيين من رؤيتهم الشمس الى يمينهم فانه الدليل القاطع على صحة رحلتهم . وعلى امانته في نقلها . فان هذه المراكب عندما بلغت جنوب ليبيا والتفتت منصرفة

---

(١) يعنون بالبحر الشمالي ما نسميه اليوم بحر الروم أو البحر المتوسط .
(٢) جبل طارق .
(٣) مؤرخو اليونان يطلقون اسم ليبيا على افريقيا

الى المغرب كانت تسير تحت الدرجة ٣٥ من العرض الجنوبي . ومن كان الى جنوب مدار الجدي (٢٨-/٢٣°) ووجهه الى المغرب ليس يرى الشمس إلا الى يمينه . وهذا مما كان يجهله اهل ذلك العهد من سكان المناطق الشمالية كاليونان وغيرهم . ولهذا انكره هيرودتس .

وفي تنبّه الفينيقيين له دليل آخر على تيقظهم ومراقبتهم في السير ظل الشمس ومطالع النجوم على ما هو مشهور عنهم[1]

---

(١) لم يُحكَ عن غير الفينيقيين القيام بمثل هذه الرحلة في ذلك العهد وما بعدهُ الى الاعصر الوسطى . اللّهُمَّ إلاَّ مَن حاول وعجز وباء بالفشل .

فقد حكى هيرودطس ايضاً (٤/٤٣) : نقلاً عما يرويه القرطجيون « انه وقع لساتسف بن تياسف وهو من اعقاب هافاماني الفارسي أن قُضي عليه بالطواف حول ليبيا . وهالهُ ما لقيَهُ في طريقه فعاد ادراجهُ على علمه بالعقاب المرصد له .

والسبب في القضاء عليه بتجشُّم هذه الرحلة الشاقة . انه كان قد اعتدى على ابنة زوفير بن مغابيز (وهو من اشراف الفرس ولأسرة زوفير هذا عند الاكاسرة كرامة ومنزلة رفيعة) . فأمر كسرى بساتسف أن يُصلب . فتشفعت فيه امُّهُ وهي اخت دارا الاكبر ووعدت كسرى ان يكون عقابهُ عندها أشدَّ . وذلك ان تحمله على الطواف حول ليبيا حتى ينتهي الى الخليج العربي .

فقبل كسرى شفاعتها وقدِمَ ساتسف مصر واكترى منها مركباً وملاَّحين

الفينيقيون (١)

كلمة في براعتهم

ان ما يبتدعه العقل يثير العجب حيناً ثم تألفه العين فيعود مبتذلاً لا يلتفت اليه . وذلك شأن كل ما كان قديم العهد من تفنن الانسان كاقتداحه النار مثلاً .

وأقلع على بركات الله الى اصنام هرقل . وبعد ما جاز بها انصرف الى الجنوب وقضى في سيره أشهراً . ثم فكَّر في ما يستقبله من طول الشقة . فقفل راجعاً الى مصر . ومنها مضى الى بلاط كسرى . وقصَّ عليه انه مرَّ في طريقه بأناس قصار القامة لباسهم من خوص النخل . وانهم عندما رأوا سفينته فرُّوا هاربين فاخذ مؤونته من مواشيهم . ثم زعم ان السفينة امتنعت بعد ذلك عن التقدم .

وتحقق كسرى كذبَهُ فأمر به فصلب . وذكر هيرودطس ما يظهر منه ان ذلك جرى لعهد قريب منه . فان خادم ساتسف فرَّ الى جزيرة ساموس بثروة طائلة وجواهر ثمينة من اسلاب سيده . قال هيرودطس : « إني اعرف من اختلسها في ساموس من ذلك العبد غير اني ارى الاولى كتمان اسمه » اه. وهذا دليل على ثقته من صحة ما روى . وترى منه ان رحلات الفينيقيين كانت في نظر غيرهم أشدَّ هولاً من القتل .

(١) البصير ١٩٤٣/٩/٢٩

ومن ألطف ما ولدته فطنته في ماضي الزمن هذه الحروف الابجدية . وحسبك دليلاً على براعة مستنبطها وما عنده من حسن الحيلة والثقة من نفسه في تخطي العقبات . انه تصدى لهذه الاصوات التي لا يدركها شيء من الحواس إلا السمع فأخضعها لسلطان العين .

ولا ريب ان سبيله اليها انه أصغى الى كل ما يطرق اذنه من الكلام وجعل يتذوَّقهُ ويحلّلهُ في ذهنه حتى استخلص منه اثنين وعشرين مخرجاً هي الحروف الابجدية وأفلت منه ما نسميه الحركات .

ومن المعلوم ان حروف الهجاء وضعتها هذه الامة الضعيفة بقلّة عددها والمعروفة قديمًا بالفينيقية وهي التي محا ابناؤها اسمها وتناسوا انتماءهم اليها ولكن شهد العالم ببراعتها حيث جرى في الكتابة على اثرها فما برح اهل الارض الى يومنا هذا يُدوّنون بحروفها مآثرهم ويذيعون علومهم وهم يحفظون لحروف كتابتهم اكثر ترتيبها الفينيقي ويسمونها باسمائها الفينيقية . حتى اشكالها ما زالت فيها مشابه من صورها الفينيقية . إلا ما طرأ على بعضها من تداول الالسنة واختلاف اللهجات وما افسده من رسمها النقل على مر السنين .

وأول من اخذ عن الفينيقيين هذه الحروف من امم الغرب هم

	عن ناووس أحيرام (جبيل) المئة ١٣ ق.م.	عن أثر أبي بعل المئة ١٠ ق م	عن نصب ميشع المئة ٩ ق م	عن ناووس اشمنعزر المئة ٥ ق.م.	عن نقوش قرة حدشة (قرطجنة)
ا					
ب					
ج					
د					
ه					
و					
ز					
ح					
ط					
ي					
ك					
ل					

	عن ناووس أحرام	عن أثر أبي بعل	عن نصب ميشع	عن ناووس أشمنعزر	عن نقوش قرة حدشت
م	𐤌 𐤌 𐤌 𐤌	𐤌	𐤌 𐤌	𐤌	𐤌
ن	𐤍 𐤍 𐤍		𐤍	𐤍	𐤍
س	𐤎		𐤎	𐤎	𐤎
ع	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏	𐤏
ف	𐤐 𐤐		𐤐	𐤐	𐤐
ص		𐤑	𐤑	𐤑	𐤑
ق			𐤒	𐤒	𐤒 𐤒
ر	𐤓 𐤓 𐤓	𐤓	𐤓	𐤓	𐤓
ش	𐤔		𐤔	𐤔 𐤔	𐤔
ت	𐤕 𐤕 𐤕		𐤕	𐤕	𐤕

حاشية — بين الاحرف المنقولة عن ناووس أحرام حرف الدال وحده منقول عن جدار الدعاس

اليونان فقد سبقوا اليها الرومان اعصراً طويلة وتقدموا فيها سائر المغرب . فهي عندهم اشبهها بالاصل الفينيقي في اسمائها واشكالها وترتيبها المعروف عندنا بالابجدي .

فاذا تصفحت اسماء الحروف اليونانية وعارضتها باسمائها الفينيقية اتضحت لك صحة ما تقدم .

فقد عمد الفينيقيون في تسمية هذه الحروف الى اشياء تسهل الاشارة اليها برسم دقيق . واسم كل من هذه الاشياء يبدأ بواحد من تلك المخارج الاثنين والعشرين لتستعين الذاكرة بالرسم على الاسم .

فخطوا للجيم مثلاً خطاً يشبه سنام البعير . واسم الحرف عندهم جيمل اي الجمل . وعنه اخذ الحرف اليوناني γ (جمّا بالجيم التي بين القاف والكاف) ولا معنى للفظ جما باليونانية سوى انه اسم لهذا الحرف . وقس عليه β (ڤيتا او بيتا) اليوناني لحرف الباء وهو من بيت الفينيقي ومعناه البيت و ι (يوتا) لحرف الياء واسمه الفينيقي يد والمعنى الفينيقي والعربي واحد . و $\varkappa$ (كپا) لحرف الكاف اي الكف و ν (نو) للنون اي الحوت و φ (في) لحرف فا اي الفم و τ (تو) اصله الفينيقي تاو وهو ما تسميه العرب تواء وهي سمة على شكل الصليب على افخاذ الابل .

وما زالت التاء الى اليوم على هذا الشكل بالحرف اليوناني واللاتيني . وهلم جرا[1]

ولذلك قال هيرودطس (٥/٥٨) : «ان الفينيقيين الذين صحبوا قدمس نقلوا الى بلاد الاغريق كثيراً من علومهم . وفي جملتها هذه الحروف . وفي معتقدي انه لم يكن لنا بها علم من قبل . فسلكنا في استخدامها بادىء بدء سبيل الفينيقيين . ثم تبدلت حالها على كرور الايام وتطور اللغة وتغيرت صورها . ولما كان اليونان منبثين في البلاد المجاورة فقد اتخذ المجاورون ايضاً هذه الحروف التي لقننا اياها الفينيقيون غير انهم ادخلوا عليها بعض التعديل، ولهذا سميناها الحروف الفينيقية. وهو من الصواب والانصاف لان الفينيقيين نقلوها الى اليونان » انتهى كلام هيرودطس .

---

(١) من الادلة الباقية شاهدة على الاصل اتخاذ الغربيين للغاتهم الحديثة حروفاً فينيقية لا حاجة لهم بها مثل k و q فان تلفظهم بهما واحد وانما الاولى عن الكاف والثانية عن القاف كما يدلك موضعهما من الترتيب الابجدي عندهم وعندنا الاولى عند klmn أول كلمن والثانية qrst اول قرشت .

واما الحروف العربية فمع ثبات الاسماء الفينيقية لها قد اختلفت صورها من قبل الهجرة . ثم غيروا ترتيبها الابجدي وفاقاً لصورها المستحدثة .

هذا ما يقوله عميد المؤرخين مقرًّا للفينيقيين بالفضل على قومه اليونان .

ثم أيَّد كلامه بعد ذلك بقوله (٥/٥٩) : لقد رأيت بعيني في هيكل ابولون بمدينة ثيبا (اي ثيبة اليونانية عاصمة بيوسيا) نقشاً بحروف جماعة قدمس وهي مماثلة كل المماثلة للحروف اليونانية . » اه[١]

٥ ٥ ٥

والذي دفع اهل فينيقيا الى استنباط الكتابة انما هو انصرافهم الى التجارة . فغرضهم منها الحرص على نقل المفاوضات الى البلد البعيد ومساعدة الذهن على ذكر العقود بعد زمن باسلوب سهل واضح ، فالفضل عائد اليهم في اطّلاعنا اليوم على كلام هذا المؤرخ بعد وفاته بخمسة وعشرين قرناً . وله عليهم الفضل في تخليد مآثرهم .

٥ ٥ ٥

(١) هيرودطس يرى ان النقش صنع بأمر لاوس بن لبدكس حفيد قدمس . وفي سير اليونان ان مدينة تيبا هذه بناها قدمس وهو ابن اجنور ملك فينيقية . وكان قدومه الى بلاد اليونان للبحث عن شقيقته اروبه . لان الاله زيوس (جوبتير) كان قد اختطفها وهرب بها الى الغرب فتأثرهما قدمس ولم يقف على مقرّهما فاطلقوا اسم اروبه على القارة التي ضاعت فيها .

وليس استنباطهم هذا وحده مما تغلبوا به على جوهر الاشياء . فهم مخترعو الزجاج . وهو ايضاً في نظرنا مبتذل لقدم عهده وانتشاره في انحاء المعمور واذا فكرت فيه قليلاً وجدتهم قد فرزوا به النور عن الهواء فحجبوا الهواء واذنوا للنور وحده ان يدخل البيوت اذا شاءوا .

ولنضرب مثلاً آخر من المبتدعات التي ألفناها فلا نعرف لها قدراً .

لو قيل ان قوماً جعلوا الجبل سهلاً وجبلاً في آن واحد . لأنكر السامع ذلك لأن الشكل لا يكون مخروطاً ومسطحاً في وقت معاً .

ولو نظرت الى جبل فينيقيا (لبنان) لرأيتهم قد اتخذوا جوانبه سطوحاً متراصفة للزراعة من قنته الى سفحه كأنها سهول بعضها فوق بعض .

وعندها يهون صنيعهم عندك لانه مما ألفته العين .

وان قدمس بوروده بلاد اليونان نقل اليها شيئاً كثيراً من معارف الفينيقيين ومصنوعاتهم منها التماثيل التي اتخذها اليونان نموذجاً لاتقان فن النحت والحفر . فصار قدمس في نظر اليونان بمنزلة الآلهة فهو عندهم ممثل الحضارة وانشاء المدن وسكب المعادن وكان قدومه بلاد اليونان في اواسط المئة السادسة عشرة قبل الميلاد .

والذي يبدر الى الذهن ان اشتقاق قدمس واوربه من القدوم والهروب او الغروب لان اللفظتين من اللسان السامي .

ولو قيل لعلهم علّموا سميراميس انشاء حدائقها المعلقة على هذا الشكل لعظم قدر الجبل في نظر السامع لشهرة حدائقها المعلقة بين عجائب الدنيا .

وفي ما يلي ما هو أدلّ على ما هم عليه من التيقّظ .

الفينيقيون[1]

ونيوطن واطوار المد والجزر

اشتهر اليونان بأن بلادهم كانت مهد الحضارة . واذا استنبأت مؤرخيهم وجدتهم يشيدون بذكر الفينيقيين قبلهم وبما فطروا عليه من البراعة وصدق النظر .

فمن كلام اسطرابون . وهي نبذة من مئات نظائرها . قوله : (١٦/٢/٢٤) « اما الصيدونيون فان اخبار الايام في كل عصر تصفهم بأنهم

---

(١) البصير ٢٠/١٠/١٩٤٣

ارباب الصناعات والفنون والفلسفة والعلم » « وانهم بعد ما استفتحوا امرهم بما يكفي الملاح وبائع السلع من الالمام بطرف يسير من الحساب قد ارتقوا فوق المحسوسات الى ذروة العلوم العددية والفلكية » اه.

ثم قال : « يجب الاقرار بأن اليونان تلقّوا فيما سلف عن الفينيقيين معارفهم في الفلك والرياضيات . ونرى حتى عصرنا الحاضر[1] كل من اراد المزيد من العلوم على اختلاف اصنافها وجد لها في صور وصيدون مشارع فياضة اغزر مدداً وأصفى مورداً من سائر الحواضر » .

« وان صدق بوزيدونيوس فان قضية الجوهر الفرد (Théorie Atomistique) يرجع الفضل في وضعها الى الفيلسوف الصيدوني موشو Mochus . وهو ممن توسطوا باحة العلم قبل حرب طروادة ».

« ولا حاجة بنا الى استخبار الايام الخوالي . ففي زماننا هذا قد اشتهر من اهل صيدون عدد نبيل من افاضل الحكماء . اذكر منهم بايثوس Beathus زميلي الذي كنت واياه نتلقى معاً فلسفة ارسطاطاليس ومثله اخوه ديودوت » اه.

---

(١) العصر الاول قبل الميلاد

وهذا الكلام يحمل على الظن ان اسطرابون نفسه ممن تخرجوا في مدارس صيدون .

وذكر اسطرابون بعد ذلك بعض من عرفهم من فلاسفة صور فقال : « منهم انطيباطر وابولونيوس كيبرنا الذي لخص مذاهب الفلاسفة اصحاب زينون وفهرس مصنفاتهم » . انتهى كلامه .

° ° °

واخبار الفينيقيين في هذا الباب كثيرة غير ان آثار علمائهم ضاعت بضياع ملكهم إلا لمعاً حفظتها لهم اسفار اليونان .

ومن اعجب ما بلغهم به توقد البصيرة قضية المد والجزر وارتباطها بحركة القمر . وهذا أمر لا يكاد يصدق عن احد من اهل عصرهم لولا ثبوت الرواية في كلام اسطرابون وهو من اهل المئة الاولى قبل الميلاد. وقد جاء بها وهو مستخف بمذهبهم غير معترف لهم بسداد الرأي .

ولولا روايته لما دار بخلد المطالع ان احداً اوصله حدسه الى مذهبهم هذا قبل ان اهتدى نيوطن سنة ١٦٨٣ الى ناموس الجاذبية العامة .

وقبل نيوطن قد عرض امر المد والجزر لكثير من العلماء فما عرفوا له قبيلاً من دبير .

ولذا قال العلامة اراغو (فلك ٤/١٠٥) : « ان احد العلماء بعد ما أطال النظر على غير جدوى في أمر المد والجزر ، سماه « مدفن تفكير العقلاء » .

« وان كبلر صاحب القواعد المعروفة باسمه في ضبط فلك السيارات وسرعتها وبعدها عن مركز الجذب . قال في المد والجزر قولاً مبهماً يؤخذ منه انه يرى للقمر يداً في تطور حركات البحر اليومية » .

« ولكن غليليو الفلكي المشهور وجد قول كبلر هذا سخافة » .

« وان اول من اثبت ارتباط المد والجزر بسير القمر وتأثير الشمس العلامة نيوطن » .

« وأول من حقق هذا الرأي وضبط حسابه بوجه ينفي كل ريب الرياضي الشهير لابلاس وكان قد قضى عشرين سنة في التدقيق والمراقبة » انتهى الملخص عن اراغو .

° ° °

فاذا فكرت في ما كانت عليه قضية المد والجزر حتى نهاية القرن الثامن عشر ثم رأيت الفينيقيين في القرن الرابع قبل الميلاد على صواب من امرها وثقة لا يخامرها شك . بدا لك ما كانت عليه هذه الامة من الفطنة وحصافة الرأي .

واني مورد في ما يلي ما نقله اسطرابون من مذهبهم هذا . وهو مسفّه لقولهم متهكّم عليهم . وإنْ تهكُّمهُ إلا تزكية لهذه الشهادة بصفاء اذهانهم ورجاحة عقولهم .

قال اسطرابون (٣/٥/٨) : « اني لأعجب من امر بوزيدونيوس[1] فانه مع اشادته بذكر الفينيقيين ونباهتهم . اراه هنا يعزو اليهم مذهباً ليس في النزوع اليـه شيء من الحصافة بل أحرِ بهِ ان يقوم دليلاً على الافَن والغفلة »

---

(١) بوزيدونيوس مؤرخ محقق وهـو ايضاً من اكابر العلماء ومشاهير الفلاسفة ولد سنة ١٣٥ قبل الميلاد في مدينـة افاميه وكانت مدينة حصينة من اعظم عواصم سورية قائمة على النهر العاصي شمال حماه وقد زار رومة وجاب البلاد ورحل الى اقاصي المغرب . ووصف ودوّن عن معاينة . وأقام بعد عودته زمناً في جزيرة رودس وكانت له فيها مدرسة تصده اليها لسماع محاضراته جمـاعة من مشاهير الرجال منهم الخطيب شيشرون و بومبيو وغيرها .

وله تحقيقات في مقاس قطر الارض . وقال ان بُعد الشمس عنها ١٣ الف مرة مثل نصف قطر الارض والصواب انه نحو ٢٣ الف مرة وان ارتفاع سكاك الهواء ٤٠٠ استاده أي نحو ٦٣ كيلومتراً والمعروف اليوم ان ارتفاعه اكثر من ١٢٠ كيلومتراً تحققوا ذلك من اشتعال النيازك باحتـكاكها بالهوآء ويقال انه صنع كرة سماوية .

« معلوم ان الشمس في كل يوم وليلة تتم دورة تكون فيها تارة فوق الارض وتارة تحتها » .

« فزعم بوزيدونيوس (وهو ما نقله عن الفينيقيين) ان للاوقيانس حركات تتعاقب كتعاقب دورات الكواكب وانها تجاري القمر كل المجاراة مرتبطة به في طوافه حول الارض . وان لحركة البحر هذه اطواراً يومية واخرى شهرية والثالثة سنوية » .

« وان القمر اذا ارتفع فوق الافق قدر منزلة . اخذ ماء البحر في الارتفاع معه وطمى على الساحل ولا يزال هذا شأنه الى ان يمر القمر بخط الهاجرة ثم يجنح القمر نحو المغرب فينحط ماء البحر ويجزر عن الساحل رويداً رويداً الى ان يبقى ارتفاع القمر فوق الافق قدر منزلة. حينئذٍ يقف سطح الماء على حال واحدة حتى يتوارى القمر ويقطع تحت الافق مقدار منزلة ايضاً فعندها يعود ماء البحر الى مدّه كالأول»

« ثم اذا مر القمر بنظير الهاجرة تحت الارض . عاد البحر الى جزره الآنف الى ان يصير ما بين القمر ومطلعه قدر منزلة فيكف الجزر ويلزم سطح البحر حاله حتى يرتفع القمر مرة اخرى فوق الافق بمقدار منزلة . فعندها يأخذ الماء في المد من جديد . وهلم جرا » .

« ذلك هو شأن المد والجزر اليومي في ما يزعمه بوزيدونيوس » .

« واما الاطوار الشهرية فعنده ان معظم المد في الشهر القمري يبلغ مستواه الأعلى عند سرار القمر ثم يتضاءل يوماً بعد يوم حتى يتم الربع الأول ومن ثم يعود معظم المد الى الازدياد الى ان يتم القمر بدراً . ومن بعدها يتناقص معظم المد الى ان يصير القمر في الربع الاخير فيعود المد تارة اخرى الى الازدياد حتى يمر القمر بالمحاق » .

« واما الاطوار السنوية فان بوزيدونيوس روى ايضاً عن الفينيقيين من سكان الجدير [1] ان المد والجزر تكون حاله عند المنقلب الصيفي على أقصى الشدة . واستنتج بوزيدونيوس من هذا القول ان معظم المد بعد المنقلب الصيفي يأخذ في النقصان الى الاعتدال الخريفي . ثم يعود الى الازدياد حتى المنقلب الشتوي . وبعده يعتريه التناقص الى الاعتدال الربيعي » . انتهى كلام اسطرابون .

° ° °

(١) الجدير هذه هي المعروفة اليوم بقادس من موانئ الاندلس على المحيط الاطلنطي انشأها الفينيقيون وانشأوا ايضاً ميناء آخر بهذا الاسم هو المعروف اليوم باغادير على ساحل مراكش على المحيط . وكلٌ من قادس واغادير مصحّف عن الجدير وهو الاسم الفينيقي ومعناه الجدار .

قلت اما الاطوار السنوية فان معظم المد في الاعتدالين وليس في المنقلبين كما استنتج بوزيدونيوس من عند نفسه . ولا ريب ان بوزيدونيوس روى سهواً أشد المد عند المنقلب بدلاً من ادنى المد . ثم بنى على هذا السهو كلامه عن سائر اطوار السنة ما لم يكن هناك تبديل من النساخ لانه مما لا ريب فيه ان الفينيقيين كما نص على ذلك تنبهوا للاطوار السنوية . فلا يعقل ان ما ثبت لهم بالمشاهدة يثبتونه على نقيض ما رأوا باعينهم ولا سيما انه ليس مما يفطنون له إلا بعد تكرره سنة بعد سنة . فضلاً عن ان ما نقله عنهم عن الاطوار اليومية والشهرية انما هو الحقيقة بعينها .

خلاصة القول ان الفينيقيين في عهد يكاد يتصل بغيابات الدهر ادركوا من أمر المد والجزر ما لبث محجوباً عن نظر الحكماء حتى القرن الثامن عشر .



الفينيقيون
واكتشاف اميركا

ان الاهتداء الى قارّة اميركا كان في عهد السفن الشراعية مقدَّراً لاحد رجلين . كلاهما ربّان ماهر :

احدهما صادق الحدس واثق كل الثقة من كروية الارض . مقدام لا يستشعر رَهْبة ولا ترهقه شدة . كما كانت حال كولمبس حين عزم على فتح طريق الهند من المغرب فوقع في اكتوبر سنة ١٤٩٢ على سواحل العالم الجديد . وهو لم يكن يريده وانما التقى به اتفاقاً لقيام هذا الساحل في سبيلهِ . وتوفي كولمبس وفي معتقده انه بلغ الهند .

° ° °

وثاني الرجلين رب سفينة غلبتهُ على امرهِ عاصفة لا مناص منها ولا سبيل الى عصيانها فاحتملته قَسراً الى أقصى المغرب الى ان قطعت عليه الطريق قارة الهند الغربية . كما اتفق للربان بيدرو كابرال في ابريل سنة ١٥٠٠ وقد فاجأتهُ ريح عاتية طارت باسطوله من جنوب

افريقيا الغربي حتى استقرت به عفواً ومحض اتفاق على ساحل البرازيل على غير قصد منه .

ولا يعقل ان ما اتفق لهذين الرجلين في القرن الخامس عشر لم يقع لاحد قبلهما .

° ° °

جدارة الفينيقيين

ولا يُستَنكر على أُمَّة كأهل فينيقية طالما سرَّحت اساطيلها في الافاق . فكانت مراكبها اكثر خوضاً لعباب البحر من حيتانه . ان يتفق لغير واحد من ملاحيها ما اتفق لبيدرو كابرال وكولمبس .

اما علم الفينيقيين بشكل الارض وطرق البحار ومهاب الرياح وفن الملاحة والاهتداء بالنجوم فانهم في عصرهم كانوا أوسع فيها تبسُّطاً واكثر مراساً وأوقر جناناً في وجه العواصف من اهل القرن الخامس عشر . وقد رأينا هؤلاء الاخيرين كيف كانت بعوثهم تتلمس الطرق على وجل للتطريس على آثار الفينيقيين . وقد مرَّ بنا الكلام في اعتراف اليونان للفينيقيين بالتقدم والبراعة في كل فن . وانهم ما برحوا اساتذتهم الى ان اتت على فينيقية نوائب الدهر . ولم تترك منها الاقدار غير جميل الذكر .

وقد حفظ اليونان عنهم في هذا الباب ما يستحسن ايراده وتلذ مطالعته.

دليلهم العقلي على كروية الارض

فمن كلام اسطرابون مثلاً في معنى شكل الارض وثقتهم بكرويتها[1] ما خلاصته (١/١/٢٠):

« ان البرهان العقلي على كروية الارض تدل عليه قوة الجذب نحو المركز وما في طبيعة الاجسام بجملتها من قوة التكتّل والانضمام على الوسط » اه.

وهذا القول من ذلك العهد عجيب. لانه لا يصدر إلا عن اعتقاد اصحابه بأن الارض زمن نشأتها كانت اجزاؤها بحال التناثر او الذوبان. فضلاً عن انه شاهد على علمهم بناموس الجاذبية العام. غير انه لا يستغرب اذا قورن بما سبقت روايته من ان قضية الجوهر الفرد

---

(١) (في ٢/٥/١) قال: ان ما نراه من موقع العبر (اسبانيا) والهند وما بينهما مصوراً على صفحة واحدة مسطحة كأنما ساعة الشروق والزوال والغروب في جميعها واحدة. انما رسم كذلك ليسهل به درس الجغرافية فلا يذهب عن البال ان سطح الارض كروي » اه.

وضعها احد فلاسفة صيدون ممن عاشوا قبل المئة الحادية عشرة قبل الميلاد . ثم ما تفرع عنها من اقوال الفلاسفة . كمذهب انكزيمندر وهو من اهل المئة الخامسة ق.م. ومضارعته للرأي السديمي عند المتأخرين .

٥ ٥ ٥

دليلهم بالمشاهدة

ثم ذكر اسطرابون البرهان العياني . فقال : « تدل عليه المشاهدة وذلك ان تحدب البحر يحجب عن النوتي الانوار البعيدة الموازية له في العلو فوق الماء . حتى اذا رفعته الامواج قليلاً رآها . » اه.

وأورد على ذلك بيتاً من شعر اوميروس بهذا المعنى . لأن اوميروس في نظره واضع علم الجغرافية . وسنعود الى هذا المعنى .

ثم قال : « ان راكبي البحر كلما دنوا من الشاطىء تكاملت لهم صور الاشياء . فما كان منخفضاً ارتفع حتى يتم . وقس على ذلك تعاقب النجوم في طلوعها وافولها ودوران الافلاك والاجرام السماوية . فلو كانت الارض قائمة على اسس راسية في قعر لا نهاية لهُ لما دارت بها الكواكب على هذا الشكل » . اه.

٥ ٥ ٥

خطوط العرض

وفي (٢/٣/٧): «ان بوزيدونيوس يهجّن مذهب الذين يرون تقسيم الارض وفاقاً لحدود قارّاتها. وانما الصواب عنده قسمتها الى حاقات مؤازية لخط الاستوآء لان الارض مناطق مؤازية له يظهر اختلاف اثرها في النبات والحيوان واحوال الجوّ من حرّ وبرد تبعاً لقربها من خط الاستوآء او من المنطقة الجليدية» اه.

٥ ٥ ٥

محيط الارض وعبور الاوقيانس

وبديهي ان إيمانهم بكروية الارض حداهم الى تحقيق مقاسها والنظر في ما يمكن سلوكه من السبل الى الآفاق. ففي كلام اسطرابون عن حجم الارض وفتح الطريق الى الهند بالاتجاه على عرض واحد عبر البحر الاطلنطي نحو المغرب قال (١/٤/٦) نقلا عن اراطوستين[1]:

---

(١) اراطوستين فيلسوف يوناني شهير ورياضي من علماء الفلك. ولد سنة ٢٧٦ قبل الميلاد في مدينة قورينه عاصمة القيروان. وتوفي سنة ١٩٦ وكان ملمًّا بكل معارف عصره فضلاً عن كونه شاعراً وخطيبا وجمّاعة للعاديات. وله تحقيقات مصيبة. منها تدقيقه في مَيل منطقة البروج على خط الاستواء. وضبطه مقاس محيط الارض.

« ان مقاس الارض الاطول يجب ان يؤخذ من الشرق الى الغرب . حتى اذا التقى طرفاه كان عنه ما يسمى دائرة . أي انه يمكن السفر في البحر من العبر (اسبانيا) الى الهند بالجري المستمرّ على خط واحد من العرض . ذلك لولا ان انبساط المحيط الاطلنطي يزيد على ثلث الدائرة من عرض اثينا وهي أقل من ٢٠٠،٠٠٠ استادة » اه.

وتعقّبهُ اسطرابون بقوله : « ان اراطوستين هنا قد اخطأ لأن ما يصدق بالحساب على المنطقة المعتدلة بوجه الاجمال على هذا الجانب منها الذي نعيش فيه من الارض لعلهُ لا يصدق على انفراد على البعض الآخر من الارض المسكونة » .

ارض بين غرب اروبا والهند

« فان ما نسميه الارض الآهلة انما هو هذا الجانب منها وحده الذي نحن نقطنه . فنحن نعرفه لسكنانا اياه . ولكن هذه المنطقة المعتدلة نفسها المارة باثينا وهي تقطع البحر الاطلنطي بطوله قد يكون فيها قارتان من الارض مسكونتان . او اكثر . » اه.

فقول اراطوستين بامكان السفر عبر المحيط الاطلنطي بالاتجاه على عرض واحد نحو المغرب من الاندلس الى الهند. واعتراض اسطرابون

بأنه قد يكون على هذه المنطقة من المحيط «قارّتان من الارض او اكثر».
لا يمكن تأويله إلا باعتقادهم وجود ما نسميه اليوم اميركا او العالم الجديد
او الهند الغربية . وانها تعترض الطريق فتحول دون الوصول توًّا الى
الهند . وهذا أبلغ في معرفة الحقيقة من تقديرات كولمبس وأدلّ بأجلى
بيان على هدايتهم الى الصواب .

وسنرى في ما بعد ان اعتقادهم هذا لم يكن منهم مجازفة وتخرصاً
بل كان يقيناً ادَّتهم اليه وقائع جرت الملّاحي فينيقية .

فان كان كولمبس قبل رحلته في القرن الخامس عشر منفرداً بإيمانه
بطريق المغرب الى الهند . فان هذا الايمان كان قبل التاريخ الميلادي
شائعاً بين رؤساء الملاحة الفينيقيين مثبتاً لدى ندوة قرطاجة . ومنهم
تسرب الى من جاء بعدهم واستفاد من خبرتهم [1]

٥ ٥ ٥

مقاس الارض

اما قول اراطوستين ان محيط الارض على عرض اثينا أقل من

---

(١) وفي قصة كولمبس وخصومه ومَثَل البيضة المشهورة ما دلّ على
وقوفهم على مذهب المتقدمين هذا وان كولمبس باتخاذه طريق المغرب قام بما
تقدمه الفينيقيون اليه .

٢٠٠,٠٠٠ استادة فهذه تساوي ٣١,٥٠٠ كيلومتر لأن الاستادة المنسوبة الى اراطوستين ١٥٧ ١/٢ متر [١] فقوله هذا لا يكاد يختلف عن الحقيقة لأن اثينه على عرض ٣٧° و ٥٨َ وانه لشاهد على إحكامهم مقاس محيط الارض على اختلاف خطوط العرض .

ويؤيد ذلك ما رواه اسطرابون (٢/٥/٣٤) نقلاً عن اراطوستين ايضاً ان محيط الارض المارّ بالقطبين ٢٥٢٠٠٠ استادة فهذه ايضاً لا تكاد تختلف عن ٤٠ الف كيلو متر كما أقرّه المتأخرون [٢]

٥ ٥ ٥

اوميروس والفينيقيون ومعرفة الارض

واما قول اسطرابون ان الشاعر اوميروس في ملحمته وضع علم الجغرافية فما ذلك الاّ لكثرة ما اقتبسه من اخبار بحارة فينيقية . ولذا

---

(١) ثبت هذا المقاس للاستادة المنسوبة الى اراطوستين لان لها امثالاً محفوظة في ما تخلّف من ذلك العهد عن مدينة الاسكندرية .

(٢) ان ما ساعد اراطوستين على الوصول الى هذا الحدّ من التدقيق انه في مدينة الاسكندرية رأى الشمس عند الظهر وقت المنقلب الصيفي منحرفة عن سمت الرأس نحو ١/٥٠ من الدائرة . وكان معروفاً ان الشمس في مثل ذلك اليوم

غلب على ماحمته الاوذيسيه وصف الاسفار الشاسعة ومخاوفها وما يتعرض له راكب البحر من هول العواصف وتحطم السفن والاشراف على التلف . وما يعانيه النازح عن وطنه من شقاء الغربة وما يشغل قلبه من الحنين الى الاهل . ولذا جعل الشاعر لُحمتها وسَداها اسفار اوذيسيو او اوليس وهيامه على وجهه في كل ناحية ثم رحيل تليماك للبحث عنه .

واذ كانت انباء هذه الملحمة مستقاة من موارد عدَّة كان بديهيًّا ان تجد البعض من اهل النقد يذهبون الى ان الاوذيسيه ليست من وضع شاعر فرد . بل رفدتها القرائح في ازمنة مختلفة .

٥ ٥ ٥

تمرُّ بالسمت في مدينة سيان (اليوم اسوان) لأنها ترسل أشعَّتها عند الظهر الى قعر الآبار العميقة .

وسيان والاسكندرية على خط واحد تقريباً من الطول (فرق الطول أقل من ثلاث درجات) فاستدل من ذلك ان ما بين الاسكندرية وسيان نحو ٥٠/١ من محيط الارض المار بالقطبين .

الاسكندرية	على	٢٧°/٣١'/٢٥''	من الطول	و	٣١°/١٢'/٤٣''	من العرض
اسوان	»	١٨/٣٠/٣٠	» »		٢٣/٥/٢٤	»
		٥٣/٥٨/٢			٢٠/٦/٧	

الخطأ دليل

وفضلاً عن هذا ان ما تضمنته الاوذيسيه من عجيب الوصف لم يسلم من الخطأ لأن راويَهُ وصف ما لم يشهد . واسطرابون شديد الاعجاب بما وصل اليه اوميروس من سعة المعارف الجغرافية . وفي ما اورده له (١/١/٤) شاهداً على علمه بالمدّ والجزر . قول هذا الشاعر (١٢/١٠٥) : « ان الاوقيانس يلفظ امواجه كل يوم ثلاث دفعات ويبتلعها ثلاثاً » . اه.

ومعلوم ان هذا خطأ لأن ذلك لا يكون في اليوم إلاَّ مرتين . وسبق لنا ان روينا المنقول عن الفينيقيين وكان صواباً .

اما اسطرابون فانه اعتذر عن اوميروس بقوله لعل الخطأ من النساخ او انه اساء المراقبة .

عجز المفسرين

وربما جاء في كلام اوميروس ما التبس على علماء اليونان لذلك العهد. ففي (١/١/٧) قال اسطرابون ان اوميروس استعار للاوقيانس اسم النهر . وان الفيلسوف بوزيدونيوس حسبه يعني به حركة المد والجزر . فتعقَّبَهُ اسطرابون بقوله ان لفظ النهر ومجرى النهر يراد بهما هنا جانب

من الاوقيانس . وأيد زعمه ببيت من الاوذيسية (١/١٢) معناه : « اذا ما خرجت السفينة من مجرى نهر الاوقيانس فاحتوتها مياه البحر » اه.

فقال اسطرابون : هذا القول لا يدل على الاوقيانس بجملته بل على مجرى نهر وسط الاوقيانس . وان النحوي كراتس[1] يرى انه شبه خليج ذاهب من منطقة المنقلب الشتوي الى القطب الجنوبي . ولذا قال اوميروس : « اذا خرجت السفينة من النهر خاضت الاوقيانس » اه.

° ° °

قلت لا ريب ان اوميروس وقف في اخبار سفن فينيقيا على وصف ما نسميه اليوم « غولف ستريم » او مجرى الخليج . وهو مجرى الماء الحار المندفع من خليج المكسيك الى سواحل ارلندة والنروج . او المجرى الجنوبي المنطلق من سواحل البرازيل الى اقصى جنوب افريقيا وسواحل استرالية وغيرها .

---

(١) كراتس المالوي فيلسوف ولغوي يوناني من اهل المئة الثانية قبل الميلاد ولد بمدينة مالوس بصقلية وانتقل الى برغامة فكانت له فيها حلقة تدريس شهيرة وعرف بالاصابة والسداد في فن الانتقاد وأعظم شهرته في تنقيح نسخ شعر اوميروس .

فما استقاه اوميروس من اخبار البحارة ووصف البحار ترى علماء اليونان يترددون في تفسيره . لأن انظارهم لم تقع على تلك الاقاصي التي جالت فيها سفن فينيقية .

ولا بدع فان هذا المجرى المعروف بغولف ستريم لبث امره مجهولاً بعدهم الى زمن كولمبس وتردُّدِ السفن بين العالمين القديم والجديد. وكان أوّل من نبَّه اليه من المتأخرين الربان الاسباني ألامينوس Alaminos وكان ذلك سنة ١٥١٣ ب.م.

° ° °

رأي الفينيقيين حجة عند اليونان

وفي كلام اسطرابون نفسه قبيل هذا ان معارف اوميروس مأخوذة عن الفينيقيين وان قدماء اليونان يقتفون اثرهم ويلتزمونه . قال (١/١/٤) : « ان المتقدمين اخذوا على اوميروس انه لم يعرف سوى الدب الاصغر » فاعتذر عنه اسطرابون بقوله : « لعل الدب الاكبر لم يكن لعهده معدوداً بين الصور السماوية . لأن ذلك لا يمكن ان يكون إلا من بعد ان يرصده الفينيقيون ويتخذوه هادياً في طرق البحر . ثم من بعدهم يعتمده اليونان كما كان شأنهم في الهلبة

La Chevelure وسهيل Canope فنحن لم نعرفها بهذين الاسمين الأ مذامس . ولذا ترى اراطوس[1] مقراً بأن كثيراً من الصور السماوية لا ندري لها اسماً » اه.

° ° °

الامعان في خوض البحار

وفي (٢/٣/١) اشار اسطرابون الى ما يراه اراطوستين من ان بعض البحار لم يعرفه الاقدمون . ولم يجرؤوا على التغرير بانفسهم فيه . ثم عارضه بقوله : « ان الاقدمين تجشموا في البحر والبر رحلات شاسعة لم يستطعها المتأخرون . واستظهر على ذلك بما ينسبونه الى ابطال طرواده . وهم عندهم في مصاف الآلهة . ثم بالطواف الشهير الذي قام به الفينيقيون على سواحل ليبيا حتى منتصفها وقد انشأوا لهم على تلك السواحل مدناً ومرافىء » اه.

فلم يعرف تلك الرحلات البعيدة الاّ الآلهة والفينيقيون

وفي (١٣/٢/٣) « ان اوميروس وقف على ما كانت عليه العبر

---

(١) اراطوس شاعر يوناني وهو من علماء الفلك وله قصيدة ضمنها وصف الارض والاجرام السماوية والحوادث الجوية . عاش في المئة الثالثة قبل الميلاد .

(اسبانيا) من ثروة طائلة . وما يرويه الفينيقيون في وصفها وما تحويه اصقاعها من صنوف الخيرات . فجعل اوميروس جنوب تلك البلاد ميداناً لبعض وقائع ملحمته ومقرًّا لارواح الصالحين . وذلك لما توفر فيها من اسباب النعيم ورغد العيش » اه.

وفي (١٤/٢/٣) قال : « اني اعيد ثانية ما قلته من ان الفضل في معارفنا هذه عائد الى الفينيقيين » .

« وانهم من قبل عهد اوميروس كانت في حوزتهم أخصب بقاع العبر وليبيا واكثرها ثروة . ثم لم تبرح تلك الاصقاع في حوزتهم الى ان قضت على دولتهم اسلحة الرومان » . اه.

٥ ٥ ٥

لئن اتينا في وصف الفينيقيين برواية غيرهم فما ذلك لكساد الادب عند قوم كانت حواضرهم منائر العلم وتجارهم رسل الحضارة وادباؤهم مستنبطي حروف الكتابة التي تضمن الخلود لذوي العرفان . ولكن جور الزمان ومطامع دولة الرومان تركت آثارهم الادبية طعمة النار وفريسة الدمار[١]

(١) وربما كان لبعض مصنفاتهم من الشهرة ما بعد معها اقتناؤه فتحاً . هذا كتاب ماجون في فن الفلاحة لم يكد يصل الى ايدي الرومان وقت احتراق

ولا ريب ان اعتراف غيرهم لهم أرجح وأحق بالقبول .

وقد اتضح مما تقدم ان الاهتداء الى العالم الجديد لم يكن متعذراً على الفينيقيين ان سعوا اليه ببراعتهم وجرأتهم وثقتهم بشكل الارض وبطريق الهند من المغرب .

وقد سجل لهم مؤرخو اليونان ما علموه بالتلقين وتواتر الاخبار من بلوغهم اقاصي المعمور وانهم ادركوا من فن الملاحة والوقوف على احوال البحر ما غاب عن غيرهم فهمه . وان القرائن وصدى الوقائع تشهد لهم ببلوغ ما لم ينتهِ اليه حدس الآخرين .

قرطجة حتى أقرّ مجلس شيوخهم نقله الى اللاطينية . وسرعان ما ترجمه اليونان ايضاً الى لسانهم . وأما اصلهُ فذهب بذهاب اربابه .

وقس عليه تاريخ سانخونياتن في اخبار فينيقية وحواضرها وقد بقي متداولاً الى المئة الاولى ب. م فنقله فيلون الجبيلي الى اليونانيـة . وبنى عليه برفيريوس دعواه في ان موسى الكليم اقتبس منه ما جاء في سفر التكوين . وهذا يحمل على الظن ان سانخونياتن عاش قبل موسى الكليم أي قبل الميلاد بأكثر من الف وخمسمائة سنة . لكنهم يرجّحون انه أحدث عهداً اما كتابه فلولا معارضة اوزيبوس لبرفيريوس لما انتهت الينا انباؤه

وحرص الرومان على طمس آثار قرطجة ومحو ذكرها أبلغ وأبعد مدى . قال العلامة برتلمي سنت ايلر (حاشية ٩ ص ١١٥ سياسة المدن لارسطو ٢/٨/٢):

بقي علينا ان نرى هل بلغت ايضاً مراكبهم العالم الجديد عفواً . كما اتفق بعدهم بألفي سنة للربان بيدرو كابرال .

البرازيل

قال ديودور الصقلي[1] (١٩/٥) : « مرّ الكلام على ما دون اصنام

« اذا تصفّحت كل ما كتب حديثاً في البحث عن دستور قرطجة واحكامها (ولا سيما تصنيف Heeren مجلد ٣ ص ١٤٠) ترى ان ارسطو وحده بين الاقدمين بسط الكلام قليلاً بهذا المعنى . لأن ما في صدور الرومان من الضغينة والحقد على قرطجة بلغ منهم انهم أضاعوا بقايا خرائبها تشفّياً حتى لا تكاد تجد لتلك الخرائب على ارضها أثراً . ثم زادوا على ذلك ان حالوا بين التاريخ ورواية شيء من اخبارها سوى اندحارها . وقد مالأهم المؤرخون على ما ارادوا بحيث تجد العالِم اليوم مهما كان واسع الاطلاع ومهما اوتي من صبر عجيب على التقصّي في التنقير والتنقيب لا يظفر من انبائها بسوى نتف منثورات وقطع مبعثرات أشبه بأطمار وأسمال وأهدام بوالٍ لا الرفو ينفعها ولا الترقيع . فليس لمن يأتي بعدهم ان يعلم عن قرطجة الاّ ما شاء اعداؤها الالداء . ولم يدون سجل الايام مثل هذا الانتقام » اه.

(١) ديودور الصقلي كان معاصراً لاغسطس . ولد على رأس المئة قبل الميلاد ومكتبته التاريخية عن حوادث العالم من أقصى الدهر الى سنة ٦٠ ق.م. استوعب فيها ما استطاع من اسفار اليونان وغيرهم .

هرقل من الجزر . ونحن ذاكرون في ما يلي جزر الاوقيانس . منها جزيرة عظيمة تناوح ليبيا . الاّ انها نائية جدًّا في أقصى البحر مترامية الاطراف في عرض الاوقيانس . والرحلة اليها من ساحل ليبيا (أي افريقيا) تستغرق اياماً باتجاه المراكب الى مغرب الشمس . اما تربتها فغاية في الخصب وقد قامت عليها جبال كثيرة انبسطت بينها سهول رائعة ببهجتها . وهذه السهول تخترقها انهار عظيمة صالحة لسير السفن . وامتدّت على ضفافها جنات غنّاء تظلّلها ضروب من الاشجار الغضّة الطيبة الثمار وتتخللها بساتين ورياض تنساب بينها جداول صافية من المياه العذبة . وقامت على بعض انحائها منازل نخمة للاصطياف يلجأ اليها الناس زمن القيظ وقد توفرت لهم فيها أسباب الغبطة من جمال المنظر ونعيم العيش . فجبالها مكسوة بالغابات الكثيفة والاشجار الشهية الجنَى وأوديتها قد تفجّرت فيها العيون والينابيع الغزيرة . وأهلها في سعة من العيش لوفرة الصيد . لأن غياضها اصبحت مأوى للطيور ومَرَبّاً للوحوش . وكثرت فيها الثمار والبقول لامتداد أيام الجني والحصاد باعتدال الهواء . وعلى الجملة انها جديرة بان تكون مباءة للآلهة . » انتهى كلام ديودور .

٥ ٥ ٥

قات من لا يرى وصف البرازيل في وصف هذه الجزيرة المناوحة لافريقية . النائية في أقصى المحيط . مترامية الاطراف في عرض الاوقيانس . وانهارها العظيمة الصالحة لسير السفن .

ولا سيما اذا ذكر المطالع ما هو معروف عن الأمازون بحمله أعظم مراكب الاطلنطي الى ما يزيد على الف كيلومتر داخل برّ البرازيل .

° ° °

وقال ديودور (٥/٢٠) : « ان هذه الجزيرة القائمة بمعزل عن سائر الارض لم يكن أحد من الملاحين يعلم بوجودها ثم هدتهم اليها حوادث الايام على ما نذكره : »

« ان الفينيقيين الدائبين من قديم الدهر على خوض البحار لمتاجرهم استقرّت منهم طوارئ وجوالي على شواطئ ليبيا (اي افريقيا) وغرب أوربا ، فاحرزوا مكاسب طائلة وثروة واسعة شدّدت عزائمهم على طلب المزيد وسوّلت لهم الإبعاد بمراكبهم عن اصنام هرقل والضرب في عرض هذا البحر المحيط المسمى أوقيانس . إلا انهم قبل التورط في مهالكه ومغوّياته انشأوا لهم في قارة اوربا مدينة سمّوها

جديرة (قادس) على شبه جزيرة قريبة من فوَّهة الزقاق الفاصل بين اصنام هرقل . وشادوا فيها ما لا غنى لهم عنه من الابنيـة . وأقاموا لهرقل هيكلاً عظيماً كانوا يتقربون اليه بالأضاحي على مذهب الفينيقيين

وما زال هذا الهيكل الى عهدنا اليوم ، قبـلة المصلين والمتعبدين ، يؤمُّـهُ الـكثير من اعيان الرومان يرفعون اليه ادعيتَهم ويحملون اليـه نذورَهم » .

« واتفق لجماعة من الفينيقيين المقيمين بهذا البلد انهم على ما ذكرنا من حب التبسُّط في التجارة ركبوا البحر يتفقدون سواحل ليبيا (افريقيا) بعيداً عن اصنام هرقل . اذ هبَّت عليهم عاصفـة شديدة لم يملكوا معها امرهم فقذفت بهم كما شاءت الاقدار الى اقصى المحيط »

فبعد ما لبثوا أياماً منقادين لسلطان العاصفة ، اذا بهم عند ساحل الجزيرة التي قدَّمنا وصفها فشهدوا ما اغدقتهُ عليها الطبيعة من الخيرات »

° ° °

السر المكتوم

« فلما شهروا شأنها فكَّر اهل البحر (اي البحر المتوسط) من الاتروسيين وغيرهم ان يحملوا اليها طارئة منهم ، ولكن القرطجيين

صدورهم عمّا نووا . لأن القرطجيين اشفقوا على ديار قرطجة ان يهجرها اهلها اذا زيّن لهم السعي في طلب الرزق سكنى البلاد الجديدة لما هي عليه من الخصب والغنى وكثرة الصيد . ثم ان أُولي الامر من القرطجيين اعدُّوها ملاذاً يلجأون اليه اذا حزبهم امر . فان غُزِيَت بلادهم واجتاحها العدو كان من السهل ان ينزحوا على اساطيلهم اليها بذراريهم للنجاة من ذلّ الغلبة ومعرّة العدوّ القاهر » انتهى كلام ديودور (١)

٥ ٥ ٥

ولذا بقي سرّ هذه الجزيرة العظيمة او « الارض الجديدة » مكتوماً في صدورهم وضاع بضياعهم وزوال مملكتهم .

---

(١) يجدر بالذكر هنا من وقائع اميركا وقت اكتشافها ان فرندو كورتس عندما أقبل باسطوله على المكسيك سنة ١٥١٩ وجدها بلاداً على جانب عظيم من الحضارة ولها سلطان مطاع وفيها لعبادة الاوثان هياكل فخمة مزدانة بنقوش متقنة الصنع ومعاقل منيعة . وفي عاصمتها اسواق للصاغة والفرّائين وباعة المنسوجات القطنية المزركشة بالذهب وما أشبه . وكان كورتس قبل ذلك وقبل اقتحامها بمدافعه النارية قد لقيَهُ سلطانها مكنزوما وهو في طريقه اليها . يريد ان يثنيَهُ عن عزمه . فأهدى اليه كورتس عقداً من الجزع وأهدى مكنزوما اليه عقدين من الاحجار الكريمة منصَّلة بمصوغات ذهبية على شكل الاصداف والسراطين غاية في الدقة وحسن النقش وقال له : « أهلاً بكم ان اميراً عظيماً على رأس اسطول أتى من قبل بأجدادنا الى هذه الارض » اه.

وفي شدة حرصهم قبل ذلك على كتمان امرها نقل ميوت (ج ٢ ص ٥٦١ مكتبة ديودور) قول ارسطو : « ان القرطجيين كانوا يعاقبون بالقتل كل من حاول السفر الى هذه الجزيرة . وكل من جاء منها كتموا انفاسه حرصاً منهم عليها وحذراً من شيوع الاخبار بما فيها من الخيرات » اه .

° ° °

وعادة الفينيقيين هذه في كتمان اسرار اسفارهم وسبل تجارتهم مشهورة . وهناك روايات كثيرة تؤيد هذا الحذر عندهم ، وهي وان عنت جزراً وموانىء اخرى فانها تصف مسلكهم على الاطلاق .

منها ما حكاه اسطرابون (٣/٥/١١) قال : « ان الفينيقيين من سكان جديرة (قادس) كانوا دون احد غيرهم يقلعون سفنهم الى هذه الجزر (المراد هنا جزر كاسيتريد ، اليوم سورلنغ أوسلّي ، جنوب بريطانيا) وكانوا يكتمون عن غيرهم طريقهم اليها . واتفق لربان احدى السفن الفينيقية انه رأى اسطولاً رومانياً يتأثّره . فلم يشك ان صاحب الاسطول الروماني يرجو معرفة الطريق المؤدية الى بعض تلك الاسواق البحرية الفينيقية . فبلغ من الربان الفينيقي حرصه على خير مواطنيه

وحذره على اسرار الملاحة انه اقتحم بسفينته بعض المهالك والاسطول الروماني في اثرِه فتحطمت السفن . ونجا الربان الفينيقي برأسه . فأحسنت الدولة جزاءه وعاضته ثمن سلعهِ ومركبه » اه .

° ° °

ولكن هيهات ان يُنجي الحذَر من القدَر . فان هذه الامّة المسالمة التي لم تعرف الفتوق والفتَن في ديارها ، ولا العدوان على جوارها ، ولم تعمل لغير التجارة والصناعة ورفع لواء الحضارة ، طال ما كانت من قبل ذلك العهد ومن بعده هدفاً للمغازي والحروب . تُذكي بثروتها المطامع ، ويسوق اليها الحسد ضروب الخطوب . حتى قلُصت ظلها السنون . والتهمت اساطيلها الوقائع . فداهمتها من صروف الدهر ابكارٌ وعُون . ردَّت قصورَها بلاقِع وقضت عليها وعلى سرِّها المكنون .

ولدى الفراغ من تمثيل هذه الرسالة بالطبع يسرُّني ان اذكر مؤازرة شقيقي جبران في تحقيقها وتنقيحها والحمد لله أولاً وآخراً .

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

